

الفتوحات الإلهية
شرح الأسماء الحسنى للذات العلية

الشاكر والشكور

لفضيلة الشيخ
محمد الدبيسي
حفظه الله وعفا عنه

الطبعة الأولى

شوال ١٤٢٩ هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدهُ ونَستعينُهُ ونستغفره، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مِنْ يَهدِه اللهُ فَلَا مُضل لَهُ، وَمَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أَمَّا بَعْدُ...،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهديِّ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشرَ الأمور مُحدثاتُها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أُمهاتِ المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

وبعد...،،

فإن الأسماء الحسنى هي الباب العظيم الذي يدخل منه المتقون على الله تعالى، وهي السلوك المستقيم الذي لا يلجْه إلا الأقلون من هذا العالم ، الذين فتح الله تعالى عليهم وأضاء لهم طريقهم إليه ونور قلوبهم وبصائرهم بمعرفته سبحانه وتعالى. فالعبد لا يستغني عن دعاء ربه بهذه الأسماء ومعرفته والإقبال عليه والتعلق به، و ليتعلم كذلك من هذه الأسماء والصفات أقضية الله جل وعلا في خلقه ، وأن يفهم عن الله تعالى مراده في هذا الكون، وفي الإنسان، وفي الأعمال، وهذه الأسماء هي قائد المؤمنين إلى تلك الدرجات العالية وإلى معرفة الله سبحانه وتعالى المعرفة الخاصة.

ودروس الأسماء والصفات ليست من جملة المواعظ أو علمًا من العلوم غير المهمة التي يتعلمها المرء أو أن هناك ما هو أهم منها، بل هي أهم العلوم ، علم توحيد الرب سبحانه وتعالى، الذي لا ينبغي لأهل الإيمان التقصير فيه أبدًا أو مقابلته باللامبالاة أوعدم المذاكرة، لأن ذلك يعني عدم الاهتمام بمعرفة الرب سبحانه وتعالى. فعلى قدر ما يظهر عليك من الاهتمام على قدر ما سوف تحصل من حظك من هذه الاسماء ومن معرفتك بالله تعالى وتوحيده.

منهج شرح الأسماء الحسنى

نُذكر بالمنهج الذي نسير عليه في شرح الأسماء الحسنى، بأن نبدأ بالشرح **اللغوي** للاسم ثم الإشارة إلى **المعاني الواردة** فيه وبعد ذلك نعود إلى **كلام الله تعالى** بما نسميه التفسير الموضوعي، فنحصي الآياتثم ننظر فيها ونرتبها على حسب المعاني التي تندرج تحتها **ونصنف كل مجموعة من هذه الآيات** تحت العنوان الذي يجمعها بما يعطيها معنى إجماليا يليق بها.

بعد ذلك نفسر هذه **الآيات إجمالاً** ، ثم **نفصل في تفسير بعض هذه الآيات** شيئا ما يليق بها ويليق بالأسماء الحسنى ، فالتفسير ليس هو الغرض، بل ما يتعلق بالأسماء الحسنى التي هي شغلنا الشاغل في هذه الدروس هو المقصود، ثم نوسع شرحها بكلام النبي صلى الله عليه وآله

وسلم وما ورد عن السلف الصالح على ما ييسر الله جل وعلا، وأخيرا نشير إلى **حظ العبد من هذا الاسم** ليوحد العبد ربه بهذا الاسم ليكون ذلك سببا لمحبة الرب له وتقريبه إياه.

والسبب في اتباع هذا المنهج أن هذه القضايا إذا ذكرت في القرآن الكريم فإن الله تبارك وتعالى يبينها التبيين الذي تصل به إلى قلوب المؤمنين، وبه يفهم المؤمنون عن الله تعالى مراده ومطلوب الشرع فيها، وهي المسألة المهمة.

وفي النهاية فما كان من صواب فمن الله تعالى وحده، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه إنه سميع الدعاء.

مسجد الهدي المحمدي

الشاكر والشكور

تمهيد : أهمية دراسة اسم الشاكر والشكور

أولًا : معاني الاسم

ثانيًا : منزلة الشكر

ثالثا : الشرح الإجمالي للآيات

رابعا : الشرح التفصيلي لبعض للآيات

تمهيد :أهمية دراسة اسم الله (الشاكر والشكور)

إن قضية الشكر من أعظم قضايا الدين، بل هي نصف الإيمان والتقصير فيها هو سبب تأخر المؤمنين عن السير إلى الله تعالى.

إن الله تعالى قد منَّ على أهل الإيمان بنعم كثيرة في أمور الدنيا والآخرة وإذا لم يشكر المؤمن ربه عليها، يوشك أن تؤخذ منه.

ولأن ترك الشكر وعدم تصريف هذه النعم في مرضات الله تعالى كفران لهذه النعم كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

لذلك كان هذا هو السبب الأول لدراسة اسم الله الشكور..

وأول الطريق لشكر هذه النعم **أن يتذكر المؤمن هذه النعم**، ثم يعد هذه النعم. ولتفريطنا في الشكر نسأل: من الذي جلس يوما أو مرة يعد هذه النعم ويفكر في كيفية شكرها وأن يجعل لكل نعمة شكرا خاصا ولكل جارحة شكرا خاصا بها كذلك.

إن **بهذا الشكر تزداد النعم على المؤمن في كل أموره**، ولأن العكس هو كفران النعم، كما ذكر الله تعالى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

السبب الثاني:

ولأن هذه القضية من أهم القضايا في علاقة أهل الإيمان مع ربهم فقد وقف الشيطان فيها لأهل الإيمان ؛ لئلا يشكروا الله تعالى.

قال الله تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧، ١٨] أي أنه سيقف لهم ويأتيهم ويحاربهم كما ذكر الله عنه.

إنها حرب على الحقيقة.. حيث قال سبحانه: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٦٤]، وقوله :استفزز من استطعت منهم بخيلك ورجلك يعني بالركبان والمشاة يقاتلهم وكما قال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]، كل ذلك لماذا؟حتى لا يشكروا الله أو يسيروا في طريق الشكر له، قال: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] وقال شاكرين خصوصا، لماذا ؟

لأن الشكر يستلزم زيادة النعم من الله تعالى، **فكلما ازداد المرء من نعم الله تعالى قوي على كيد الشيطان ومكره**، ووقف له واستطاع المرء أن يسير إلى الله تعالى لا يمنعه الشيطان، ولا يعيقه ولا يصده ولا يستطيع الشيطان أن يرده على عقبه فإذا قال الشيطان: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٦]، يعني يعترض طريقهم إلى الله حتى لا يمر أحد إليه سبحانه من الذي يمر ؟ قال: الشاكرون فقط لماذا؟ لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢].

واخيرا فإن الشكر هو القضية الجميلة التي إذا انشغل بها المؤمنون كانوا في الدرجات العالية، كانوا من خُلّص المؤمنين لأن الله تعالى هو الذي ذكر ذلك فقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، فالأقلون من عباد الله تعالى هم الشاكرون له سبحانه وتعالى.

معاني الشاكر الشكور



معاني الشاكر والشكور

أولاً: الشرح اللغوي:

تكلم **الإمام القرطبي**[1] على اسمه تعالى الشاكر والشكور لأنهما من نفس الباب، فقال: "**ومنها الشاكر والشكور**" يعني من الأسماء الحسنى لله جل جلاله وتقدست أسماؤه.

"**نطق بهما التنزيل**" يعني نطق القرآن الكريم بالشاكر والشكور فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٣٤].

" **وجاء شكور في عداد الأسماء الحسنى وأجمعت عليه الأمة ولا خلاف في إجرائه على العبد إذا كان وصفا منكرا ، يدل عليه قوله تعالى قول الحق : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾** [الإسراء : ٣] وقوله تعالى: **﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾** [سبأ : ١٣] **فليس الوصف لواحد بعينه إنما المراد به الجنس** " .

"**يقال: شكر يشكر واسم الفاعل شاكر على القياس**" ، اسم الفاعل من شكر هو "شاكر"، "**وفي المبالغة** "يعني وصيغة المبالغة من شكر: "**شكور وشكّار بتشديد العين وقوله تعالى: ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾** [الإنسان: ٩] ، **يحتمل أن يكون مصدرا مثل قعد قعودا ، ويحتمل أن يكون جمعا مثل بُرد وبرود ، أو وكَفر وكفور ، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل ، والشكور من النبات ما يجتزئ بيسير الماء** " ، يعني

(١) انظر "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى".

ما يكفيه كذلك يسير الماء حتى ينبت ويطلع، "**وقيل للحلوبة يغزر لبنها على قلة المرعى: شَكِرَت، وقد شكرت شُكرا وشَكرا ، ومنه الحديث ذكر يأجوج ومأجوج فقال صلى الله عليه وسلم: (إن طيور الماء ودواب الأرض تشكرَ من لحومهم شكرًا)** [١] **فالأصل فيه إذن في اللغة، الأصل في شكر: الزيادة على وصف مخصوص كما جرى بيانه في هذه الألفاظ**" .

كيف نفهم ذلك في حق المولى سبحانه وتعالى؟

الشكر في حق الله تعالى **أن يعمل العبد اليسير من الطاعة ، القليل من الطاعة فإذا بالله تعالى لكونه شاكرًا وشكورًا جل وعلا يكافئه بالكثير من الأجر وبالعظيم من الثواب وبالعالي من الدرجات عنده سبحانه وتعالى.**

فيعمل العبد العمل اليسير على الإخلاص والسنة ، فإذا بالله تعالى لما عمل له هذا العمل يبتغي به وجهه سبحانه وتعالى يجازيه عليه أعظم الجزاء، وهو عمل قليل، والله تعالى لا يضيع عنده لا قليل ولا كثير ؛ الكلمة فما دونها كمثقال الذرة من خير يكافأ به العبد، فلما كان يكافئ على مثقال الذرة، ويعطي على هذا المثقال الدرجات الكثيرة والثواب الجزيل والعطايا الكبيرة دل ذلك على كونه شاكرًا وشكورًا .

"ومنه كذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]" يعني قليل من الأيام قد قضيتموها في الدنيا في العبادة والطاعة لله تعالى، يكافئهم بها المكافأة العظيمة فيعطيهم سعادة الأبد في جوار الله تعالى والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، شكر لهم ذلك سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

وإذا كان ذلك شكره للمتقين من عباده فانظر إلى شكره للبغي في سقي الكلب! فإنه سبحانه وتعالى شكر لهذه المرأة البغي كما ورد في الحديث : (بَيْنَما كَلْبٌ يُطيف بِركِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقْتُلُه الْعطَشُ إِذْ رأَتْه بغِيٌّ مِنْ بَغَايا بَنِي إِسْرَائيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فاسْتَقت لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغُفِر لَها بِهِ)[1]، وشكر سبحانه لهذا الذي أخر جذع الشجرة عن الطريق ففي الحديث : (بيْنَما رجُلٌ يمْشِي بِطريقٍ وجد غُصْن شَوْكٍ علَى الطَّرِيقِ، فأَخَّرُه فشَكَر اللهُ لَهُ، فغَفَر لَهُ)[2].

فإذا علمت أن الله تعالى شكور على اليسير من العمل فكيف لا تبذل اليسير والكبير والكثير من العمل لله تعالى ليتضاعف لك شكره وليتضاعف لك ثوابه وليتضاعف لك أجره وعطاؤه ووهبه في الدنيا والآخرة؟

نتنقل إلى مسألة جديدة في كلام القرطبي يقول: "**وتكلم الناس في الحمد والشكر هل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فذهب الطبري والمُبرد إلى أنهما بمعنى واحد سواء ، وهذا غير مُرضي ، والصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان**" .

يعني أن الحمد أن تثني على الممدوح أن تمدحه بصفاته الحسنى، فنقول : حمده على شجاعته وعلى صدقه وكرمه، ولا نقول : شكره على شجاعته، تقول : شكره على ما أعطاه من مال ووقف جانبه في حالِك الأيام مثلا، أو بما أسدى إليه من معروف، نقول شكره، إنما الحمد فهو ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، هذا كلام الشيخ وسنزيده بعض التفصيل إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

(٢) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق .

نستكمل : "**هذا قول علماء اللغة الزجاج وغيره، قال الفراء : فيه لغتان يقول المرء : شكرت الرجل وشكرت له**"، والوارد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (**شكر الله له فغفر له**)[1]، (**شكر الله لها فغفر لها**)[2] وهكذا.

"**فالله سبحانه وتعالى يحمد على ما وجب له من صفات الجلال والكمال**" وهذه هي النقطة المترتبة على كون المدح هو الثناء على الممدوح نحمده عليها سبحانه وتعالى، ونزاهة ذاته المقدسة عن كل نقص، "**ويشكر على ما أسداه من معروف**" فهو سبحانه في نفس الوقت يشكر على ما أسداه من معروف وجميل إلى عباده الفقراء المساكين، **أعطاهم نعمة الإيمان ونعمة الطاعة ونعمة الجسد ونعمة الصحة ونعمة الفراغ ونعمة الصحاب ونعمة الأهل والولد ونعمة المال والجاه، كل هذه النعم منه** فيحمد كما ذكرنا على ما وجب له من صفات الجلال والكمال، وعلى تنزه ذاته المقدسة عن كل نقص.

المعنى الأول: شكور بمعني مشكور:

"**وفعول في اللسان بمعنى مفعول موجود فيكون وصفًا ذاتيًا بالنسبة إلى من يشكره**"، فهو سبحانه يشكر على ما أسداه على ما أعطاه وأولاه من معروف لكل أحد، فيكون سبحانه وتعالى شكورًا على هذا بمعنى مشكور.

ومشكور تأتي في اللغة بمعنى مفعول وتأتي كذلك بمعنى فاعل، فعندما نقول إنه حميد يعني حامدا سبحانه وتعالى أو محمودا.

---

(١) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق.

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

إذا لما نقول شكرت له ما أسداه من جميل سبحانه وتعالى فهو شكور بمعنى أنه مشكور على ما أسدى وعلى ما أعطى وعلى ما وهب وعلى ما أنعم وعلى ما تفضل وعلى ما أحسن وعلى ما جاد سبحانه وتعالى.

فلما أقول شكرت فلانا على فعل فهو شكور أي هذا فلان شكور بمعنى أنه مشكور؛ لأني شكرته فوقع عليه شكر الشاكرين فصار مشكورًا. من هذا المعنى يكون الله تعالى مشكورًا .

المعنى الثاني للشكر :الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع

لا يكون الشكر للمنعم إلا بالاعتراف بهذه النعمة مع الخضوع له سبحانه وتعالى، لذلك يقول: "**إن حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع**" وهذه هي الجملة يحفظها المؤمنون في معرفة الشكر "**لأن الرجل قد يعترف بنعمة غيره على سبيل الاستهزاء فلا يقال أنه يشكره فلهذا قيل: إن حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على سبيل الخضوع**" .

يعني ليس على سبيل الخضوع له غير معترف بنعمته فلا يعيره التفاتا ولا يجعل له قيمة ما، بل ينظر إليه نظرة تهوين لشأنه أو نظرة استهزاء أو غيره مع أنه فعل له معروفًا.

مثل أن تقف في الطريق ويأتيك شخص مسكين وجدك لست قادرا على حمل الحقيبة فحمل لك الحقيبة وأوصلها لك فتقول له خذ مالا قال لك : لا شكرًا لا أريد شيئًا، هذا شخص مسكين فيكون شكرك إياه ليس على سبيل الخضوع له.

المعنى الثالث: حقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر

"وقال أرباب المعاني في فهم هذه الألفاظ : الشكر هو الاعتراف بالتقصير في الشكر للمنعم لذلك قال تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] فقال داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك والشكر نعمة منك، فقال : الآن قد عرفتني وشكرتني إذ عرفت أن الشكر مني نعمة" .

وهذه المسألة معناها مهم لأهل الإيمان، وهي كما يقول الشيخ هنا : الاعتراف بالتقصير في شكر المنعم .قالوا : لماذا؟ لأن شكرك نفسه لهذا المنعم هو نعمة منه ! بدليل أننا لم نفكر في أن نجلس لنشكر ربنا ، فعندما يشكر المرء ربه فهذا نعمة منه سحانه، أليس كذلك؟

لذلك تصل في النهاية إلى أن **شكر الله تعالى هو الاعتراف بالعجز عن الشكر**.. لماذا؟ لسببين:

الأول: أن النعم لن يحصيها أحد.. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : ١٨].

الثاني: أن شكر نعمة الله .. نعمة من الله ، لأن الله تعالى قال:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

والشكر هذا من أجلّ نعم الله تعالى عليك، لماذا؟ قال : لأنه عندما تشكر ربنا ستجيئك نعم أخرى ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] لهذا كان شكر النعمة من أجلّ النعم ، لأن الله وفقك لهذا الشكر سبحانه وتعالى ولأنه لما وفقك للشكر دل على محبة زيادة هذه النعم، فالذي يشكر ربه على الصلاة والله تعالى وفقه لهذا الشكر وقبل منه ذلك الشكر إذا بالله يوفقه سبحانه إلى صلاة أكثر وأعظم، وفقه إلى الصدقة وشكر الله تعالى عليها إذا بالله تعالى يزيده من النعم التي أعطاه إياها فشكر بها.

فلما أعطاك نعمة المال نعمة البدن، نعمة الصحة، نعمة العين نعمة المشي، أعطاك نعمة الإيمان، نعمة الطاعة، اصطفاك للعلم، اصطفاك للوقوف بين يديه، كل ذلك نِعم منه سبحانه وتعالى، هذه النعم تستوجب الشكر عليها، يقول له : الشكر نفسه نعمة من الله، فماذا لو شكر؟ قال له : هذه نعمة، قال له : النعمة هذه ماذا تحتاج ؟ قال له : تحتاج شكر ثاني، قال له : والشكر هذا نعمة إذن يحتاج شكر ثالث والنعمة هذا تحتاج شكر والشكر هذا نعمة رابعة إذن لن ينتهي: ومن ثم يكون الشكر هو الاعتراف بالعجز عن أداء هذا الشكر .

قال: **متى يعترف بالعجز ؟ قال: بعد أن يبذل كل عمله شكرا لله تعالى،** فيبذل ما في وسعه ليشكر الله تعالى حتى إذا لم يجد شيئا يبذله اعترف بعجزه عن هذا الشكر فهذا **قد وصل إلى حقيقة الشكر** .

<u>المعنى الرابع : أن يكون العمل على سبيل الشكر</u>

ويبين هذا قول الله تعالى لآل داود: ﴿ **ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا** ﴾ [سبأ : ١٣] قال لهم : اعملوا شكرا، ؟ يعني أن كل عملكم لله لابد أن يكون على سبيل الشكر.

فمتى جئت لتصلي تلحظ هذا قائلا : أي رب هذا شكري لك على أنك وهبت الصلاة كما قال: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾ [النحل : ٥٣] ولما تصوم تقول: أي رب أنت الذي وفقت للصيام، وأنت الذي أعنت على ذلك كله، وأنت الذي تقبله بفضلك وكرمك، مع كامل تقصيري في أداء ذلك، واعترافي بعجزي، وأن كل عملي لا يوازي نعمة من نعمك، فضلا على أن يليق بوجهك الكريم. .

المعنى الخامس: الشكور المطلق هو الله تعالى

وهذه المسألة نقلها الشيخ القرطبي عن الشيخ الغزالي ، يقول : "**الشكور هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات**" ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيمًا في غير محدود الآخرة ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨].

ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال : إنه شكر تلك الحسنة فإذا أحسنت إلى أحد وأعطاك على هذه الحسنة عشر حسنات فقد شكر لك هذه الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضا يقال إنه شكره، فإذا نظرت إلى معنى الزيادة، **لو أحسن إليك امرؤ بحسنة واحدة هل تستطيع أن تعطيه ألف حسنة** ؟ أو لما أحسن لك حسنة واحدة هل تستطيع أن تعطيه كل يوم في مقابلها هذه الحسنة مائة حسنة إلى يوم يبعثون مثلاً ؟ أعطاك اليوم جنيها هل تستطيع أن تعطيه مائة جنيه إلى أن يموت أو تموت؟ أو أعطاك مائة جنيه هل تستطيع أن تعطيه ألف جنيه مقابلهم كل يوم أو أعطاك شيئا أكبر من ذلك هل تستطيع أن تكافئه بشكر غير محدود ؟ نقول له : إذا نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى.

المرء أصلاً عطاؤه محدود وعمره محدود وماله محدود ويمكن أن ينفد في أي وقت فكيف يعطي عطاء غير محدود ؟

لذلك: إذا نظر المرء إلى هذه المجازاة إلى الزيادة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى لأن زياداته سبحانه وتعالى في المجازاة غير محصورة ولا محدودة فإن نعيم الجنة الذي هو لا حصر له ولا آخر له ولا حد له يكون على الحسنات القليلة في الأيام القليلة ، كما قال الله تعالى: ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]، لذلك لا يستحق الثناء على الحقيقة إلا لله سبحانه وتعالى.

المعنى السادس: الرب إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه

إذا نظرت إلى معنى الثناء "**فالرب تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه**"، فمعنى الثناء أنك قد أثنيت على غيرك أليس كذلك؟ وربنا عندما يشكرك ويشكر فعلك يكون في الحقيقة يشكر نفسه . أليس كذلك ؟ لماذا؟ لأن أعمالهم من خلقه هو الذي خلق أعمالهم سبحانه وتعالى فإن الذي أعطى فأثنى مشكورًا ، فالذي أعطى وأثنى على المعطي فهو أحق أن يكون شكورًا، أليس كذلك ؟

لو أعطاك أحد وهو الذي شكرك يكون أحق بالشكر أو ليس أحق؟ إذن يكون هذا الشكور على الحقيقة هو الله تعالى ، إنما شكر فعل نفسه لأن فعل العبد من خلق الرب سبحانه وتعالى ، فثناء الله تعالى على عباده كقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] أو كقوله تعالى: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] الله من الذي أعطاه هذه الأوبة، ومن الذي وفقه لها، ومن الذي أعانه عليها؟ ومن الذي جعله يتصف بهذه الصفات؟ ومن الذي اصطفاه له واجتباه لها؟.. الله تبارك وتعالى.. فهو يعطي ويهب ويثني فقد أثنى بما أعطى سبحانه وتعالى لذلك يقول: "**تنبيه: العبد يتصور أن يكون شاكرًا في حق عبد آخر كيف ؟ قال: مرة بالثناء عليه لإحسانه إليه وأخرى بمجازاته إذا لم تستطع أن تجازيه**" . .

تقول: شكر الله لك، جزاكم الله خيرًا، أحسن الله إليك، تدعو له كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأخرى بأن تجازيه (**مَنْ صنعَ إِلَيْكُمْ معْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ به، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**).. وذلك من الخصال الحميدة.. قال صلى الله عليه وسلم: (**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**)[1]، وأما شكره لله تعالى فلا يكون إلا بنوع من المجاز بمعنى

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

فإنه إذا أثنى فثناؤه قاصر لأنه لا يحصي ثناء على الله تعالى، أنا يمكن أثني عليك أبالغ في الثناء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في الثناء: قطع رقبة صاحبه أليس كذلك؟ أو يبالغ في مجازاته للمعروف عمل لك معروفا بمائة جنيه عملت له معروفًا بألف جنيه فأعطيته زيادة أما الله تبارك وتعالى فمهما أثنيت فثناؤك قاصر قال: لا يحصي ثناء عليه، وإن أطاعه قال : فطاعته نعمة أخرى من الله تعالى إن أطاع الله فهذه الطاعة نعمة، يعني أنت أردت أن تشكر ربنا فأردت أن تشكره بالطاعة بأن تصرف هذه النعم في مرضاته سبحانه وتعالى، هذا الطاعة الجديدة ممن؟ من الله تعالى، أليس كذلك؟ يقول : بل عين شكره نعمة أخرى وراء النعمة المشكورة، إذن لو أنت شكرته فشكرك إياه نعمة قد وهبها لك وراء النعمة التي قد أعطاها فشكرت عليها.

لذلك في قضية داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: قال : إلهي كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ فقال: الآن قد عرفتني وشكرتني. وقد ذكرنا مثلها في قصة سيدنا موسى عليه السلام لما قال : يا ربي إن أنا صليت فمنك وإن أنا تصدقت فمنك وإن أنا بلغت رسالاتك فمنك، فكيف أشكرك؟ قال : الآن شكرتني.

فإن جعلتني أصلي - سبحانه وتعالى - فهذه نعمة عظيمة بدليل أن هذه النعمة قد حرمها غيرك أليس كذلك؟ وهذه النعم الباقية من العبادة والقرآن والذكر كل ذلك ألم يحرمها أناس آخرون؟ حرموها أم لم يحرموها؟ محروم منها كثير وأنت قد أعطيت هذه النعمة أين شكر هذه النعمة منك إذن ؟

فقد عرفت أنها من الله تعالى صليت فمنه هو -كما ذكرنا- سبحانه وتعالى: ﴿ **ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ** ﴾ [الشورى: ١٣] .. فإن هو قد هداك إلى طريقه سبحانه وتعالى واصطفاك له أليست تلك نعمة عظمى من الله تبارك وتعالى؟ يمكن أن يكون معك النقود فتبخل بها، هو سبحانه وتعالى يعينك على إخراج شح نفسك وحرص نفسك ويجعلك تبذل له

وتنفق له سبحانه وتعالى فكان ذلك نعمة عظمى من الله سبحانه وتعالى وهذا معنى إن صليت فمنك وإن تصدقت فمنك.

المعنى السابع: شكر النعمة ألا تستعملها في المعصية

"وإن من أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى ألا يستعملها العبد في معاصيه بل أن يستعمل هذه النعم كلها في طاعته سبحانه وتعالى" . .

وهذا كلام جميل في معرفة الرب سبحانه وتعالى، إذن لما تجد لسانك يتحرك في غير ذكره وفي غير تعلم العلم أو في غير القيام بحقه والثناء عليه ومدحه تكون حولت هذه النعم من الشكر بها إلى عدم الشكر ولو استعملت النظر كذلك فيما حرم فقد كفرت شكر هذه النعمة، ليس الكفر الذي هو الكفر المخرج عن الملة بل كفران النعم، وإن تركت هذه الصحة فلم تقم له بالطاعة فيها بل استعملتها في المعصية وفي تضييع الوقت وفي نصرة الظالم وفي السعي للإعانة في المصائب والآفات والبلايا في الدنيا فهل استعملت هذه الجوارح في طاعته أم استعملتها في معصيته ؟ وكان حق الشكر أن تستعملها في الطاعة لا تستعملها في المعصية، انظر للنعم كلها التي أعطاك إياها الله لكي تعرف كيف أنت تقابل نعم الله تعالى بما يستوجب أن تؤخذ منك هذه النعم، وأن تمحى.

المسألة التالية: **"والشكر يقتضي زيادة النعم كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾** [إبراهيم: ٧] **وعدمه يزيلها** " أي عدم الشكر يزيل النعم كما قال القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وواظب عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وانظر لماذا تنزل علينا النقم والخُطوب والبلايا من الله تعالى ؟ لأن أقل شيء في الشكر لم يستعملوه ، وهو أنهم قد استعملوا ما أعطاهم من نعم في معاصيه سبحانه وتعالى فاستوجب ذلك محق هذه النعم، وفي نفس الوقت أن تنزل بدلها النقم، الله تعالى يصبر على عبده ويمهله ويعطيه ويفتح عليه، ثم إذا به لا يبالي بربه ولا يزال مبتعدًا في غيه بعيدًا عن أن يستعمل هذه النعم في مرضاته ، فتؤخذ هذه النعم، وربنا أعطاك نعمه وأعطاك إنعامًا وأفضالاً وإحسانا سبحانه وتعالى لكي تحاربه بها؟ وتعصيه بها؟!

الله سبحانه وتعالى لا يحب ذلك من عبده لذلك يأخذ هذه النعم التي قد أعطاك لتشكره وتعبده وتطيعه يأخذها حتى لا تكون سببا في هذه المعصية له سبحانه وتعالى من المؤمنين الذين وعظهم بذلك وحذرهم من مخالفته .

هذا الكلام ينبغي أن يكون عهد أهل الإيمان من معنى الشكور ، وهذا الذي يسميه العلماء **حظك من الشكور**، ما حظك من هذا الاسم قال: هذا **الحظ الأول :** كيف تحقق في نفسك هذه المعاني من معاني شكر المولى سبحانه وتعالى على هذه الجوارح التي أعطاك فإذا لم تحقق هذه المعاني لم تكن شاكرًا أو شكورًا ؟ ومعنى ذلك أنك قابلت النعم بغير الشكر قابلتها بالكفران والجحد، **قابلتها بالمعاصي والسيئات يوشك أن تؤخذ منك ويوشك أن تعذب عليها**.

وهذه المسألة تحفظ على المرء دينه وتحفظ عليه جوارحه في هذه الأيام التي قد ملئت بالفتن والمعاصي والسيئات والفسق والفساد، ولا يحفظ المرء نفسه فيها إلا بحفظ الله تعالى له، ولا يحفظه ربه سبحانه وتعالى إلا أن يكون سائرًا على هذا المنهج من الأسماء والصفات عندما يعلم أن شكر النعم وإزالة النقم إنما يكون بتصريفها في مرضاة الله تعالى، وألا يصرفها في معصيته يحذر كل الحذر عندما يحاول أن يعصي بعينه أو بيده أو بقلبه أو ببقية جوارحه إذا به

بمعرفته بهذا الاسم المبارك يحفظ الله تعالى عليه هذه الجوارح فينقلب إلى عبد جديد يحب ربه ويقبل عليه ويتحرك في مرضاته ويصرف جوارحه وأعماله وأقواله كلها في طاعة الله تعالى.

"فهو سبحانه وتعالى مختص بالفضل الذي لا ينبغي لغيره فإنه يقبل اليسير الذي لا ينفعه من الطاعة ويبذل العظيم الذي ينتفع به كل من سواه" ، الله تعالى يقبل اليسير من الطاعة وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع بهذه الطاعة لا القليل ولا الكثير، ومع ذلك يبذل العظيم على هذه الطاعة الذي ينتفع به كل من سواه.

المعنى الثامن :الشكور والشاكر من صفات الذات، ومن صفات الأفعال

"وقال الحليمي : الشاكر يعني في أوصاف الله عز وجل معناه المادح لمن يطيعه والمثني عليه والمثيب له بطاعته فضلا من نعمته سبحانه وتعالى، قال : والشكور : هو الذي يدوم شكره ويعم كل مطيع وكل صغير من الطاعة أو كبير، فعل قول الحليمي يرجع مدلول هذا الاسم إلى ثنائه على المطيعين فيكون من صفات الذات؛ لأنه يرجع إلى صفة الكلام واختاره ابن العربي. ومن صرفه إلى جزائه سبحانه وتعالى على شكر الشاكرين فيرجع إلى فعل مخصوص ويكون من أسماء الأفعال يعني من صفات الأفعال" .

الشكور والشاكر ينطبق على كونه من صفات الذات، ومن صفات الأفعال ، فهو من صفات الذات لأن الله تعالى متصف به أزلاً وأبدًا، ومن صفات الأفعال لتعلقه بالمخلوقين الذين لم يوجدوا أزلا بل وجدوا بعد ذلك فتعلق الشكر بهم فصار من صفات الأفعال. قد ذكرنا الفارق بين صفات الفعل وصفات الذات قبل ذلك وهي من أهم الموضعات التي ينبغي مذاكرتها.

الآيات الدالة على كونه من صفات الذات:

"فأما ثناؤه سبحانه وتعالى على خيار خلقه فإنه مدح نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقال : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال في إسماعيل عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ [مريم : ٥٤] وقال في الخليل : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] وفي الكليم موسى عليه السلام : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ [مريم : ٥١] وقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] فخص النبيين وعم المؤمنين" . .

قلنا: لقد اجتمع لله تعالى في هذا الاسم كونه من أسماء الذات ومن صفات الأفعال كذلك، ما الدليل على أسماء الذات؟هذه الآيات التي تدل على ثناء الله تعالى على خيار خلقه بل وعلى المؤمنين الذين ليسوا من عباده الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ [الفتح : ١٨].

فهذا ثناء من الله تعالى برضاه عن هؤلاء المؤمنين فدل على أن هذا الثناء من أسماء الذات وأن الشاكر والشكور من أسماء ذاته المقدسة سبحانه وتعالى.

الآيات الدالة على كونه من صفات الأفعال:

يقول: "وأما جزاؤه الشاكرين فقد جازى سبحانه وتعالى عباده في العاجل ووعدهم بحسن الجزاء في الآجل وأخبر أنه يضاعف الحسنات ويتجاوز عن السيئات فهو سبحانه وتعالى المتفرد بشكر الشاكرين وثواب المطيعين قال الله العظيم : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] " . .

فهو سبحانه يجازي ويثيب ويعطي وهذا هو الفعل، الثناء لما كان راجعًا إلى الكلام كان من أسماء الذات ولما وصلنا إلى كونه من صفات الفعل فإن الفعل الذي يقوم به المولى سبحانه وتعالى لعباده والذي يدل على كونه شكورًا هو إثابتهم سبحانه وتعالى.

المعنى التاسع: كل جارحة شكر يخصها

والمسالة الجليلة: **"ثم اعلم أن على كل جارحة شكرًا من جوارحك شكراً يخصها، وعلى اللسان من ذلك مثل ما على سائر الجوارح، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعضاء تقول للسان: (اتق الله فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)**[1]**. وشكر كل جارحة إنما هو باستعمالها بتقوى الله العظيم وذلك في امتثال ما يخصها من الطاعات وفي اجتناب ما يخصها من العصيان فشكر البدن ألا تستعمل جوارحه في غير طاعته سبحانه وتعالى" . .**

شكر كل جارحة منك اللسان والعين والشم والذوق واليد والرجل والبطن والفرج، كل ذلك كما يقول شكرها باستعمالها في تقوى الله، وذلك في امتثال ما يخصها أي: يخص هذه الجارحة من الطاعات وفي اجتناب ما يخصها من العصيان.

شكر القلب: "وشكر القلب ألا تشغله بغير ذكر الله ومعرفته سبحانه وتعالى" فلا تشغله بالصور، تغمض عينك تجد القلب محشوا بصور الدنيا، المال والأماني والمناظر التي رأيتها والتي لم ترها وما تريده وتريد تعمل كذا في الدنيا وتكون كذا والوساوس والخطرات التي لا يعلمها إلا الله لو اطلع عليها الناس لوبخوك، وهذا غير الحقد والغش والغل وطول الأمل في الدنيا والطمأنينة والتعلق بغير الله والمحبة لغير الله والخوف من رضا غير الله تعالى وخشية غير الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٠٧) كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان .

لذلك يجب على المرء أن يتعلم كيف يكون قلبه متحركا في طاعة الله تعالى ألا يشغله بغير ذكره ومعرفته، بتوحيده ومحبته بالتعلق به، والثقة فيه، وحسن التوكل عليه، والاطمئنان إليه، بالإنابة والتوبة والخشوع والخضوع والخوف والرجاء، بتصفيته من الأخلاق الرديئة والصفات المرذولة كالعجب والكبر ومحبة الدنيا وطول الأمل، ونسيان الآخرة والغفلة عن لقاء الله.

وشكر اللسان ألا تستعمله في غير ثنائه ومدحه" يعني ثنائك على الله ومدحه **فتستعمل اللسان في الطاعات، ما يخصه من الذكر وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول** الصالح والإصلاح بين المؤمنين، وقول العلم النافع، وقول الحق، وفي تبليغ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، و تجنب ما يخصه من العصيان مثل الغيبة والنميمة والسخرية والكذب والاستهزاء وغير ذلك مما لا حصر له مما يقع فيه المؤمنون فضلا عن غيرهم.

"وشكر المال ألا تنفقه في غير رضاه ومحبته ووراء ذلك تطوعات كثيرة للشاكر والشكور قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل حتى تورمت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: (أفلا أكون عبدا شكورا)[1] ".

المعنى العاشر : شكر من أسدى إليه معروفا من الناس

"ثم على المسلم أن يشكر من أسدى إليه معروفا من الناس قال صلى الله عليه وسلم : (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[2] رواه أبو هريرة ، قال الخطابي : هذا الكلام يتأول على معنيين أحدهما : أن من كان طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله تعالى وترك الشكر له . والوجه الآخر أن الله سبحانه

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(٢) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

وتعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر".

وحديث (لَا يَشكُرِ الله مَنْ لَا يَشكُر النَّاسِ) [1] حديث صحيح له معنيان.. **المعنى الأول:** أن من كان طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعم الله تعالى وترك الشكر له، وأن هذه عادته مع الله تعالى. **والمعنى الثاني:** أن الله لا يقبل شكر العبد على إحسانه طالما لا يشكر إحسان الناس إليه، يعني الناس قد أحسنوا إليه فلم يشكرهم، والله تعالى أحسن إليه شيئا فشكره قال: لا يقبل شكره حتى يشكر الناس أولا الذين أسدوا إليه هذا المعروف وقدموا له هذه الصنيعة.

"قلت: ومثل هذا في المعنى قول الحق: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بشكر والديه، إذ كانا سبب وجوده وأمر بشكره سبحانه وتعالى إذ أوجده بعد أن لم يكن شيئا مذكورا وهداه إلى معرفته والإقرار بربوبيته ووحدانيته فأبواه حدبا عليه ورباه إلى أن صار يقوم بنفسه فوجب شكرهما لذلك فإذا عقهما بالإساءة إليهما والمخالفة لأمرهما فكأنه لم يشكر لله الذي أوجده وهداه لارتباط أحد الإحسانين بالآخر فتحصل من هذا أن للشكر ثلاثة أركان الإقرار بالنعمة للمنعم، والاستعانة بها على طاعته، وشكر من أجرى النعمة له على يده تسخيرا منه إليه".

هذا في كلام الإمام القرطبي وفي كلام بقية العلماء كابن القيم يقول: **أركان الشكر ثلاثة: الإقرار بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا**.. كما قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ثم **تصريفها في مرضاة مسديها** سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر السابق.

الإمام القرطبي يقول: "**وهذا الركن لم أره لأحد ممن تكلم عن الشكر فيما أعلم**"، أتانا رحمه الله بركن ثالث لم يتكلم فيه أحد من قبل كأن الله تعالى هداه إليه كما يذكر هو رحمه الله تعالى، وهو أن تشكر من أجرى الله تعالى النعمة على يده وسخرها لك بسببه.

فمن أجرى لك نعمة المال، نعمة الهداية، نعمة البصر، نعمة الطاعة، نعمة التوفيق إلى الأعمال إلى غير ذلك لابد أن تشكره، فهذا من أركان الشكر التي لا ينبغي التخلف عنها حتى يستكمل المرء شكر نعم الله عليه.

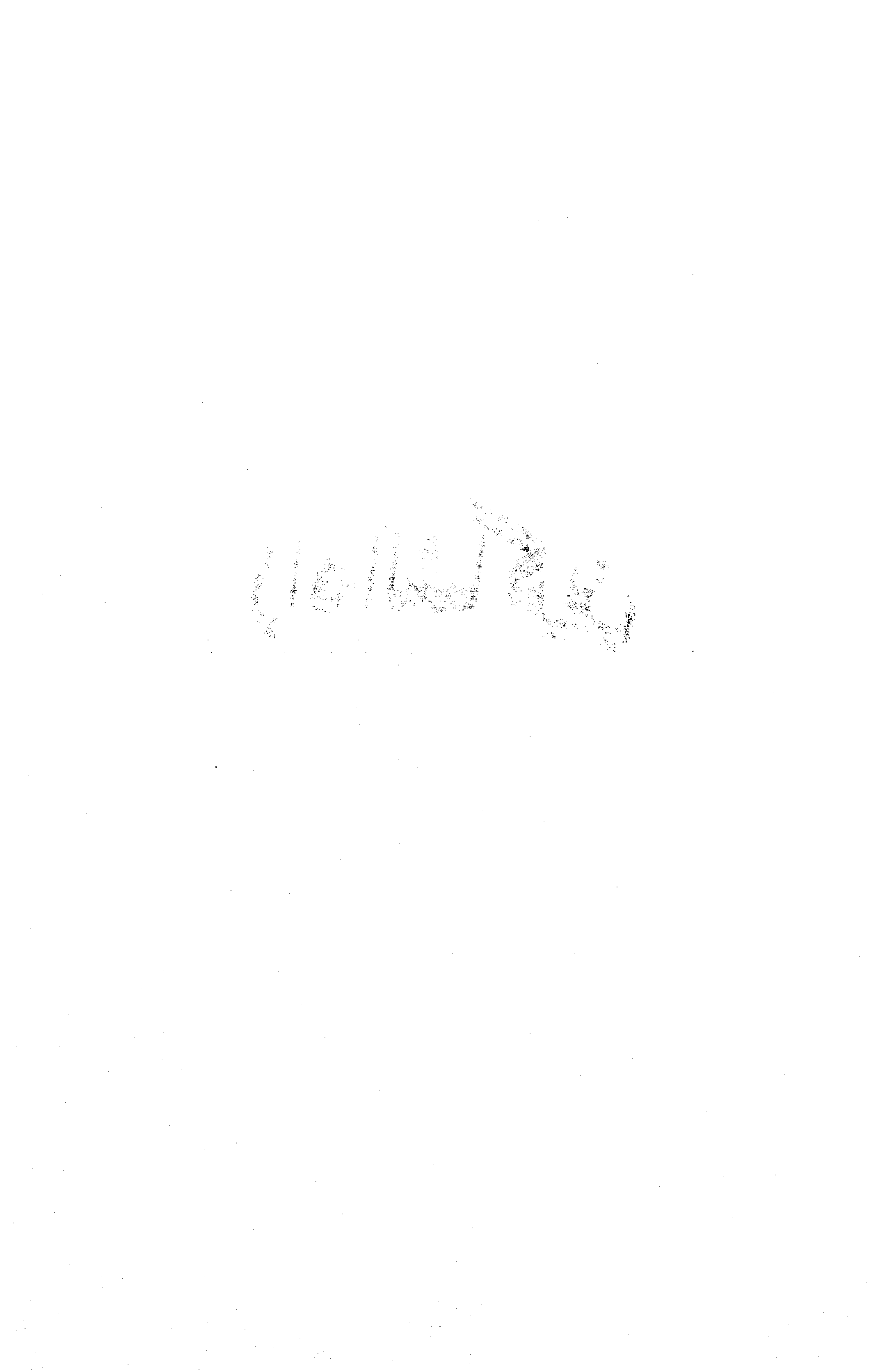
"**والله أعلم فله الحمد على ما فهم وعلم وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألاَّ تتقوى بنعم الله على معاصيه. قلت: حقيقة الشكر ما ذكرناه وإن كان ما ذكره يتضمن معناه، وفي الحديث: (من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته)** [(١)]". وهذا الحديث في إسناده مقال، وإن كان كلامًا جميلاً يشهد له كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

نقف عند هذا الحد في المعاني لنبدأ بعد ذلك في تفصيل قضية الشكر والشكور والشاكرين وما يتعلق بها في كلام الله تعالى على المنهج الذي نسير عليه في شرح الأسماء الحسنى.



(١) رواه أبو داود (٥٠٧٣) كتاب الأدب – باب ما يقول إذا أصبح، وسكت عنه.

زاد الشاكرين



زاد الشاكرين

ونذكر هذا الكلام لأنه يحبب المرء في ربه سبحانه وتعالى، و يعينه على أن يكون شاكرا له، ويحثه على أن يبدأ في تصحيح علاقته بالله تعالى في قضية الشكر حتى يستقيم له إيمانه وتوحيده، وحتى يستقيم له تعلقه بربه، وحتى يزداد ويترقى إلى الله تعالى ؛ لأنه كلما ترقى إلى الله تعالى أمن من الرجوع ، الجميع -إلا من رحم الله تعالى- لا يستطيع أن يسير إلى الله تعالى مترقيا إليه، ولكنه يسير يوما أو يومين، ثم يعود مرة أخرى إلى التقصير والتفريط والنوم والغفلة، والبعد وإن صدق حينا رجع، من الذي استطاع أن يسير وأن يترقى إلى الله جل وعلا؟ ينبغي أن يتحقق بهذا الشكر أولا.

يقول ابن القيم[1]: **"فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يَستقلّه بل يشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة"**، ومهما عمل المرء من عمل فإن الله تعالى يشكره له، يشكر الله له ذلك، وقد ذكرنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم :(البغي التي سقت الكلب فشكر الله لها، فغفر لها)[2]، وهذا الذي أزال أو : (رفع هذا الجذع من طريق المؤمنين يؤذيهم شكر الله له فغفر له فأدخله الجنة)[3]، لهذا العمل القليل لأنه رفع هذا الجذع جذع الشجرة من طريق المسلمين .

(١) انظر "عِدَّةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين"

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

(٣) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق .

ونذكر هذا الكلام حتى تحب ربك وحتى لا تحتقر شيئا من المعروف، وحتى تستكثر من هذا المعروف لتحصل هذا الشكر العظيم من الله تعالى، أنت في حاجة إلى أن يشكرك الله تعالى، يعني إلى أن يترتب على شكره هذا سبحانه وتعالى تلك الإثابة الضخمة منه سبحانه وتعالى، فهلا استكثرت مما يشكرك الله تعالى عليه ؟ وهلا كان همك أن تفعل ما يكون سببا لشكر الله لك ؟

"ويشكر عبده بإعطاءه الحسنات والشكر الثاني بأن يثني عليه بين ملائكته وبين ملئه الأعلى ثم يلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله "

والشكر الثاني قد ذكرنا أنه الثناء، فمع أنه هو سبحانه الذي وفق للعمل الصالح، هو الذي يثني عليه كما أشرنا في الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] يقال: أنت الذي أعطيته الصبر وأنت الذي منحته القوة على تحمل ذلك، وأنت الذي وهبت له، وأنت الذي أحسنت إليه ثم تشكره ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

"وإذا بذل له شيئا رده المولى عليه أضعافا مضاعفة وهو الذي وفقه للترك والبذل وشكره على هذا وذاك "

وهي المسألة جديدة، انظر إلى المرء عندما يترك شيئا لله تعالى يعطيه سبحانه أفضل منه، وإذا بذل له شيئا رده عليه أضعافا مضاعفة حتى يتعلم المرء تصحيح أعماله، **وأنه لا يضيع له عند الله شيء**، وأنه مهما ترك راحته وبذل ماله وترك دعته وسكونه ونومه ليقوم لله تعالى إذا بالله يشكره فيرد له ذلك أحسن وأجزل وأكمل وأتم، يقول وهو الذي وفقه للترك والبذل، من الذي وفقه إلى أن يترك المعصية، أو أن يترك راحته ونومه من أجل أن يذكر الله، من الذي وفقه ليتصدق ويصلي وأن يقوم وأن يصوم وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأن يصبره على العلم النافع والعمل الصالح ؟

"**ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبا له إذ شغلته عن ذكره عاضه عنها بالريح**" يعني لما غضب سليمان عليه السلام من خيله التي شغلته عن ذكر الله تعالى فكرهها ماذا عوضه ربه ؟ أعطاه الريح بدلا من الخيل التي تجري بهذه السرعة البطيئة: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ص الآيتان: ٣٦، ٣٧] انظر ما رزقه الله تبارك وتعالى لما ترك لله جل وعلا وبذل له هذا الأمر.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته سبحانه وتعالى أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم، "**ولما احتمل يوسف الصديق عليه السلام ضيق السجن شكر الله له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء**" ، نذكر هذه الأمور لنعلم شكر الله تعالى أو شيئا من شكره؛ حتى يسارع الناس إلى فهم هذه القضية ويحاولون أن يشكروا الله تعالى، "**ولما بذل الشهداء أبدانهم له سبحانه وتعالى حين مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن عوضهم منها طيرا خضرا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه**" .

ولما بذل رسله أعراضهم لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم وآذوهم فعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو ملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار" .

كل منا يخاف على نفسه أنه يصلي وأنه يبذل وقته، وأنه يقوم لله تعالى ويقول أنه سوف يتعب، وأن الصلاة طويلة ومتى الإمام المسكين يركع، وهكذا ومتى يسلم، ويأتي متأخرًا من أجل أن يجد الصلاة منتهية ولا يأتي مبكرًا حتى يتنعم بنعيم الله تعالى، ويقف له ويبذل وقته وجهده لله، فيعوضه الله تعالى عن هذا الوقت وعن هذا الجهد ببركة الجسم وببركة الوقت وببركة القوة، ويفتح أنواع الفتوح، لما أقبل على الله سبحانه وتعالى وترك له امرأته الحسنة، وترك له ولده ووقته وجهده وذهب إليه تراه سبحانه وتعالى لا يعوضه عن ذلك، انظر إلى هذه

المعاملة القبيحة منا كما يقال: نعمي إليهم نازلة وشرهم إلي صاعد؛ لذلك يقول - وإن كان هذا فيه كلام - "**أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه**".

"**ومن شكره أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلبا كان قد جهده العطش حتى أكل الثرى**[1]، (**وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك من طريق المسلمين**)[2]، **فهو سبحانه وتعالى يشكر العبد على إحسانه لنفسه والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه**"، الله يشكر العبد على إحسانه لمن؟ لنفسه، كما قال من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، ومع ذلك لا يشكره على إحسانه لنفسه، والعبد يشكر العبد مثله على إحسانه لغيره، بأنه أحسن إليه فشكره، أما الله تعالى يشكرك على أنك تشكر لنفسك أليس كذلك؟ وأنت لا تريد أن تحسن لنفسك حتى يشكرك الله تعالى وتقصر في ذلك وتتكاسل عنه وتتوانى، وتتململ من أن تفعل لنفسك شيئا يكون مصدر شكر الله لك.

"**وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يحسن به إلى نفسه**"، يعني من الذي أعطاك القوة التي تحسن بها إلى نفسك؟ هو الله تعالى، ثم شكرك على ذلك، أليس القوة التي أعطاك لتحسن بها أو المال الذي وهبك لتحسن به إلى نفسك، هو الذي أعطاك هذا المال فأحسنت منه لنفسك فشكر لك، قال لك : خذ هذا المال وقال : أحسن بهذا المال لنفسك، فلم تحسن فأحسنت فشكرك وهو الذي أعطاك ذلك، والمعنى المهم هنا أنك لا يصل من إحسانك إلى الله شيء، ولا نقص من ملكه في تقواهم شيء.

(١) رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها .

(٢) رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق .

لذلك يقول : **"وأبلغ من ذلك شكره على القليل بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها ، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر ، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه وتعالى"** .

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء : ١٤٧] .

وانظر كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى، يأبى تعذيب عباده بغير جرم كما يأبي إضاعة سعيهم باطلا، فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسيء سبحانه وتعالى، فشكره سبحانه وتعالى اقتضى ألا يعذب المؤمن الشكور وألا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة الجميلة .

"ومن شكره سبحانه وتعالى أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير" فلا يضيع عليه هذا القدر ، كما جاء في الحديث: **(أَخرِجُوا مِن النَّارِ مَن كَانَ فِي قَلبِه مِثقَال ذَرَّة مِن من خير)** [1] فهل أضاع عليه ذلك رغم أنه وفقه لهذه الذرة من الإيمان ؟ شكره عليها فأخرجه بها من النار سبحانه وتعالى.

"ومن شكره سبحانه وتعالى أن العبد من عباده يقوم له مقاما يرضيه بين الناس ، فيشكره له وينوه بذكره بين عباده ، قال تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] ". ذكره المولى سبحانه وأثنى عليه ونوه به في الملأ الأعلى وبين المؤمنين إلى يوم الدين أليس كذلك؟ مع أنه قام مقامًا الذي أيده فيه بالقوة هو الله جل وعلا، والذي أرشده إليه هو الله تعالى والذي وفقه فيه وجعله لم يتلعثم، هو الله تعالى، والذي نصره بأن قام هو الله تعالى، فكل شيء من توفيقه سبحانه وتعالى ثم شكره بأن أثنى عليه ونوه بذكره إلى يوم يبعثون.

(١) رواه البخاري (٢٢) كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال.

يقول: "**وكذلك شكره لصاحب ياسين مقامه ودعوته إليه**" قال: ﴿**وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ**﴾ [يس: ٢٠]، فنوه الله تعالى بذكره في نهاية الآيات وأدخله جنته حتى قال: ﴿**قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ**﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

"**فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك**"، وهذه هي المسألة، فكما ذكرنا في بداية القول أنه يغفر لهم إساءتهم ويشكر لهم إحسانهم، فإن هم أساؤوا ولم يشكروا فلا يهلك على الله إلا هالك، وهي النهاية التي ما منها بُدٌّ في القول.

"**ولما كان هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر وأبغض خلقه إليه من اتصف بضد ذلك من الجحد والنكران**"..

ولنحفظ هذا الكلام، **فمن كان شاكرا سواء لله تعالى أو لعباده فإن ذلك يُعرضه لمحبة الله**، والعكس، لأن هناك نفوسًا تعمل لها العمل والإحسان ولا يخرج منه كلمة شكر ! وهذه المسألة تحتاج إلى مجاهدة، لأن هناك أناس طبعهم هكذا تفعل مهما تفعل يقول لك : وماذا فعلت! نادرا ما تخرج منه كلمة شكرا لأحد، أو يجد أخاه في نعمة فيكون سعيدا أو لو عمل له شيئا يقول له : جزاكم الله خيرا أو زادك الله، أو إن شاء الله نجيئك في الأفراح وتخرج من قلبه فعلا أنه يريد ذلك لإخوانه فهذه مسألة في طباع الناس الخسيسة !

لأن هذه النفوس الخسيسة هي التي تقوم على سوء الطوية وخبث النية كما يقول العلماء، ولذلك **يحتاج صاحب هذه النفس أن يجاهد نفسه، ألا يستصغر معروفًا من أحد حتى يشكره عليه** وألا يستكثر على نفسه أن يقول جزاكم الله خيرًا، وأن يذهب إليه ليقول له ذلك وأن يتكلف عناء ذلك ولو كلفه وقتًا ومالا وجهدًا يذهب إليه ليشكره أو يثيبه على نعمه أو ليكافئه التحية بالتحية أو العمل الصالح بالعمل الصالح الذي أسداه إليه، لا يتأخر عن ذلك، يكافح نفسه

على ذلك كلما يقول له شخص : السلام عليكم، يقول له : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وإحسانه ومغفرته، يعني كأنه يزيده في الرد الذي يثيبه عليه، ولا يحقر من المعروف شيئا كما ذكر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (**لَا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئا وَلَو أَن تُفرغَ مِن دَلوِكَ فِي إِنَاء المُستَسقِي ولَو أَن تُعطِيَ صِلَةَ الحَبل**،...)[1] لو أراد أحد قطعة حبل صغيرة أعطه صلة الحبل، إلى غير ذلك من هذه النعم مهما كانت صغيرة وقليلة يعود لسانه حتى يأتلف اللسان والقلب على تذكر هذه النعم وشكرها وأن يقوم بحقها وأن يحقق في نفسه الركن الرابع الذي أشرنا إليه من أركان الشكر فيأخذ بذلك بحظه من هذا الاسم المشرف من أسماء الله تعالى .

وقد ذكرنا أن الله تعالى يشكر على اليسير من العمل من مثقال الذرة لو أنت عملت مثقال ذرة من خير الله تعالى يكافئك عليها، الله تعالى قال : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ** ﴾ [الزلزلة: ٧] يثيبه على هذا المثقال مثاقيل الذر الذي لا قيمة لها في عين البشر إذا بها لا تضيع عند الله تعالى ويشكره عليها سبحانه وتعالى.

وعلى الجانب الآخر.. **فليس مقصود المرء أن ينتظر شكرًا من أحد، لأنك** تعمل لله تعالى، وانتظار الشكر يخالف الإخلاص، كما قال تعالى في الآية : ﴿ **لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان : ٩] يعني لا ثناء ولا عوضا، يعني لا تعطيني في مقابل ما أعطيتك شيئا ولا حتى أن تثني علي إن فعلت هذا الفعل، هذا هو معنى الجزاء والشكر، والشكور هو الإخلاص لا ينتظر من ذلك شيئا.

"**وكفران النعم الإجحاف في شكرها**" بمعنى إما أن يترك شكرها ابتداء أو أنه يستخدم هذه النعم في معاصيه سبحانه وتعالى وهذا معنى جحد هذه النعم أو كفر هذه النعم، فالله تعالى يكره الجَحُود النَّكُور الذي يتصف بهذه الصفات وقد ذكرنا في أركان الشكر التي ذكرها الإمام

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١١٠) من حديث أبو جري الهجيمي رضي الله عنه مرفوعًا .

القرطبي أن الركن الثالث هو أن تشكر من أجرى الله تعالى تلك النعم على يديه لك، فلا بد وأن ينشغل المرء بهذا المعنى .

لذلك يقول: **"كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها من تلك الصفة"** يعني بضد الشكر، وهذا يثبت أن أحب خلقه إليه من اتصف بموجب أسماءه الحسنى كلها ؛ ، وأبغضهم إليه سبحانه وتعالى من اتصف بضدها.

وهذا الله تعالى يبغض الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم كلها ؛ لأنها في مقابل تلك الأسماء الحسنى التي اتصف بها الله سبحانه وتعالى في كونه العليم وفي كونه العدل وفي كونه سبحانه وتعالى الكريم وفي كونه القهار إلى غير ذلك، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستِّير يحب أهل الستر ، والمؤمن القوي -القوي الإيمان -أحب إليه من المؤمن الضعيف، عفو يحب العفو ، وتر يحب الوتر .

وكل ما يحب سبحانه وتعالى فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها وكل ما يبغضه سبحانه وتعالى فهو مما يضادها فافهم هذا الكلام من أجل أن يخرج الناس الصفات السيئة والصفات الرذيلة التي هي فيها لأنها مما يبغضها الله تعالى . كل واحد يعرف الصفات التي توجد فيه من الجبن والخسة واللؤم والحقد والحسد والتكاسل وكل الأشياء التي يعلمها المرء من نفسه، والتي لو أظهرها سوف يكون سبب بصق الناس عليه !

فضل الشكر : وقد أشرنا إليه مجملاً، ونوضح شيئًا استكمالاً لهذا المعنى الذي يحبه الله تعالى والذي يبغض المولى سبحانه وتعالى من يتصف بضده من النكران والجحود وترك الإحسان إلى الناس وترك معاملتهم بما يكون دليلها على أنه شاكر لربه سبحانه وتعالى، وهذه المسألة قد ذكرها الإمام ابن القيم أيضًا في التفاضل بين الصبور والشكور فقال : "**قال الشاكرون: لقد تعديتم**

دوركم وفضلتم مقامًا غيره أفضل منه وقدمتم الوسيلة على الغاية" ، الصبر وسيلة للشكر **"وقدمتم المطلوب لغيره على المطلوب لنفسه"** ، والمطلوب لغيره هو الصبر والمطلوب لنفسه وهو الشكر، **"وقدتم العمل الكامل على العمل الأكمل وقدتم الفاضل على المفضول، ولم تعرفوا للشكر حقه ولا وفيتموه مرتبته"**

فالصبر هو الوسيلة، تصبر حتى تستطيع أن تعبد الله من أجل أن تشكره سبحانه لا بد أن تصبر على هذا الشح والحرص ومنازعة النفس، مثلا لتدفع هذا المال وكذلك لتُصبر نفسك على الطاعة حتى تقوم شاكرا لله تعالى، لما قام صلى الله عليه وسلم حتى تشققت قدماه من طول القيام قال : (**أَفَلَا أَكُونُ عَبدًا شَكُورًا؟**)[1] ما الذي حمله على ذلك الصبر، إذن الصبر وسيلة لأن يشكر، ليس هو الغاية لذلك يقول لهم : قدمتم الوسيلة على الغاية وقدمتم المطلوب لغيره على المطلوب لنفسه لأن الصبر مطلوب لغيره لبقية المراتب.

والصبر ثلاثة أنواع: الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على المحن والمصائب، وهذا مطلوب لغيره عندما يصبر على المحن والمصائب ليثاب، وهذا غير **الشكر** .

قال: قرن الله تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق وكلاهما هو المراد بالخلق، والأمر والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما دعونا عليهما فاقترن اسمه باسم الشكر قال تعالى: ﴿ **فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه سبحانه وتعالى لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا ولم يقل إن صبروا وآمنوا فقال تعالى: ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٤٧] شخص يقول لي : لماذا قدم الشكر على الإيمان؟ لا بد وأن يكون مؤمنًا أولاً، وهي أن الله تعالى عندما يذكر الإيمان فإن هذا الشكر من مفردات الإيمان، ومع أن الشكر نصف الإيمان، فقد قدم الشكر على الإيمان مع أن الإيمان هو الأول، **وذلك لأمرين** : الأول **أهمية الشكر**، فإفرد الشكر من **الإيمان لأنه أهم**

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

عناصر الإيمان التي تأبى التعذيب من الله تعالى هي صفة الشكر، أفردها بالذكر وقدمها حتى يعلم المؤمنون أن ما يمنع العذاب عنهم من صافت الإيمان بالذات هو الشكر.

يقول : أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما يصنع بعذابكم ؟ هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده.

ومثل ذلك قوله: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ** ﴾ [البقرة : ٩٧] وبعد ذلك ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ** ﴾ [البقرة : ٩٨] فقال: جبريل وميكال وهما من ملائكته فلمّاأفردهما وخصهما بالذكر من الملائكةفذلك لأهمية هذين خاصة في السياق، وذلك في الرد على اليهود لما قيل له : من يأتيك من الملائكة قال: جبريل، قالوا: هذا عدونا، وإنما قال: وجبريل وميكال، بالذات من الملائكة الذين تنكرون هذا الكلام عليهم هم بالذات من الملائكة أهم ما يذكر في هذا السياق لأنهما المقصود بالمدح في هذا السياق.

ومثله أيضا قوله: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾** ﴾ [يوسف: ٩٠] فمع أن التقوى تشمل الصبر، و الدليل على ذلك، قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا** ﴾ [آل عمران: ١٥] من الذين اتقوا؟ قال: ﴿ **ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾** ﴾ [آل عمران: ١٧]، فلما قال: يتق ويصبر، ولم يقل يتقي فقط، دل ذلك على أن أهم عناصر التقوى في هذا السياق هو الصبر فأفرده بالذكر.

وقد أَخَّره في هذه الآية، بخلاف الآية أخرى: ﴿ **إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم** ﴾ [آل عمران: ١٢٥] فقدمه فيها، لأنه أهم صفة من صفات التقوى التي يريدها الله تعالى في هذا السياق ليتصف بها المؤمنون هي صفة الصبر فأفردها بالذكر ثم قدمها للاهتمام.

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فرد الله عليهم فقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فالشاكرون هم أهل للمنة من الله تعالى وهم المخصوصون بتلك المنة من بين عباد الله.

"وقسم الناس شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله"، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]، وكل تلك الآيات في أن الله تعالى قد قسّم الناس لشكور وكفور حتى يعلم المرء **أنه ليس بين المرتبتين ثالثة يعني بين الشكور والكفور، إما أن تشكر وإما أن تكفر**، يعني إمّا أن تشكر، إمّا أن تجحد نعم الله تعالى بترك الشكر أو بتصريف هذه النعم في غير مرضاته أو في غير معاصيه سبحانه وتعالى، وهذا كثير في القرآن يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فينقلب على عقبيه يعني يكفر ويرتد في مقابلها: وسيجزي الله الشاكرين، **والشاكرون هنا هم الذين ثبتوا على الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم.**

"وقد وقف سبحانه وتعالى كثيرا من الجزاء على المشيئة" كقوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة: ٢٨] وكقوله تعالى في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٨]، **إلا الشكر، فقد أطلق جزاء الشكر إطلاقا فلم يقدره بالمشيئة**، فقال: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ

﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ولم يقل: إن شاء، وقال كما ذكرنا: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] ولم يقل : إن شئت، أو ما شاء الله.

"**ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه عن الشكر بالذات فقال** : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ووصف الله سبحانه وتعالى الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول : اللهم اجعلني من الأقلين، فقال : ما هذه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله قال : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] وقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص : ٢٤] فقال عمر : صدقت.

"**وقد أثنى الله تعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال** : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] وفي تخصيص نوح عليه السلام هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني، وإنهم من ذريته هو، لم يبق من ذرية آدم إلا من كان من ذرية نوح عليهما السلام كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]، لذلك كان في معنى الكلام أنه إشارة إلى أن يتصفوا بما اتصف به أبوهم نوح عليه السلام حيث إن الخلق كلهم من ذريته عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبدا شكورًا.

"**وقد أخبر سبحانه وتعالى أنما يعبده من شكره ، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته**: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وأمر عبده موسى أن يتلقى هذا كله بالشكر فقال

تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وهذا الكلام متوجه لأهل الإيمان، فينبغي أن يقبلوا من ربهم ما يأتيهم منه تبارك وتعالى، أن وأن يكونوا لذلك من الشاكرين.

يقول: "**وأول وصية وصى الله تعالى بها الإنسان بعدما عقل في هذه الحياة الدنيا هي أن يشكر لله قال تعالى:** ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤] وأخبر أن رضاه سبحانه وتعالى في شكره فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ [الزمر: ٧] وأثنى سبحانه وتعالى على خليله إبراهيم بأنه يشكر النعم فقال: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [النحل الآيتان: ١٢٠، ١٢١] فأخبر عنه سبحانه بأنه أُمَّة، أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه كان قانتا لله، والقانت في هذه هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المائل إلى الله تعالى المعرض عن غيره، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكرا لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله سبحانه وتعالى.

" **وأخبر سبحانه وتعالى أن الشكر هو الغاية من خلقه ومن أمره كذلك، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها قال تعالى:** ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام حتى تفطرت قدماه من طول القيام، فقيل له في ذلك، فقال: (**أَفَلَا أَكُونُ عَبۡدًا شَكُورًا؟**) (١) وكما ثبت في المسند وسنن الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: (**وَاللهِ إِنِّي**

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

لأُحِبُّكَ، فَلا تَنسَ أَن تَقُولَ دُبُر كُل صَلاة : اللَّهُمَّ أعنِّي عَلى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِك)[1] وقال صلى الله عليه وسلم : (**أَربَعٌ مَنْ أُعْطِيهُنَّ فَقَد أُعْطِي خَيرَ الدُنيَا وَالآخِرَة، قَلبًا شَاكرًا ، وَلِسَانًا ذَاكرًا، وبَدنًا عَلى البَلاءِ صَابرًا، وَزَوجَة لَا تَبغِيه خَونًا فِي نَفْسِها وَمَالِه)**[2]، وقد ثبت في صحيح مسلم، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**إِنَّ اللهَ لَيرضَى عَن العَبدِ يَأكُلُ الأَكْلَة فَيَحمَدَهُ عَليَها، وَيَشرَب الشَربَة فَيَحمَدَه عَليَها**)[3] فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال : ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [التوبة : ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد سبحانه وتعالى.

لعل أهل الإيمان، قد فهموا شيئًا عن هذه القضية ، فنحن عن هذا الشكر غافلون وإنه من **أعلى مقامات معرفة الرب سبحانه وتعالى التي لا يجوز للمرء أن يتخلف عنها**، لأنها كما أشرنا ليس في مقابلها إلا الكفران بهذه النعم والله تعالى يبغض على هذا الحال السيئ والمرء يتمقت إلى الله تعالى بترك الشكر وهو لا يدري، ومن ثم كان واجب المؤمنين اليوم أن يسارعوا في تصحيح ما هم فيه من الأحوال السيئة وأن يدعوا الله تبارك وتعالى كما قال لمعاذ صلى الله عليه وسلم : (**اللَّهُمَّ أَعنِّي عَلى ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسنِ عِبَادَتِك**)[4] .

والمرء محتاج إلى أن يبتهل إلى الله تعالى أن يعينه على ذلك، وأن يوفقه إليه فمن أكرمه الله تعالى وفتح عليه باب الشكر فقد فتح عليه باب معرفته، وفتح عليه باب المزيد وفتح عليه باب عبادته وفتح عليه باب محبته، وفتح عليه باب زيادة النعم التي ذكرنا في الآيات والآثار التي أشرنا إليها .

---

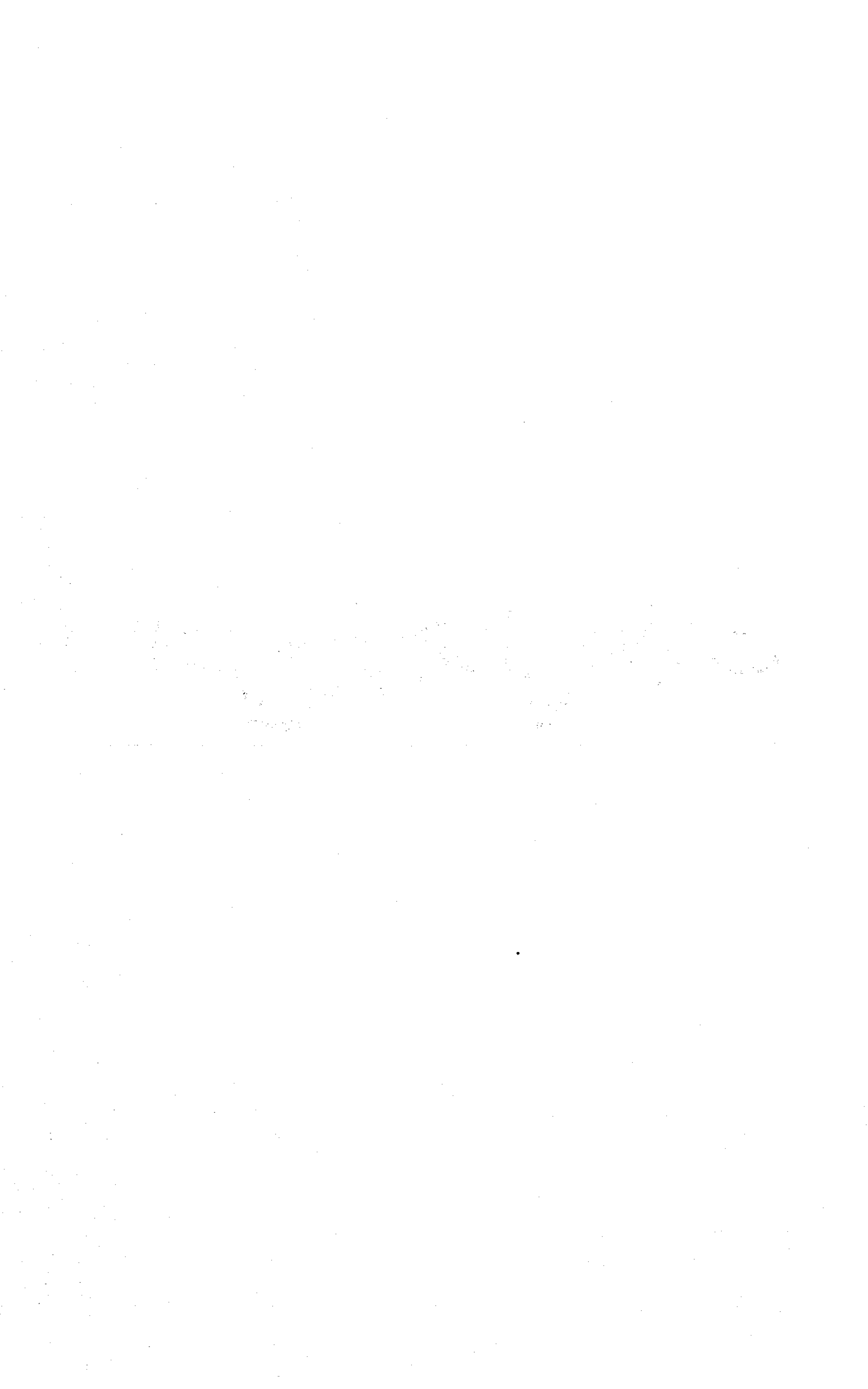
(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، والنسائي (١٣٠٣) كتاب السهو.

(٢) أورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٢٩) وقال : إسناده جيد.

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب .

(٤) صحيح : سبق تخريجه.

الشرح الإجمالي للآيات



الشرح الإجمالي للآيات

بالنظر في آيات الله تعالى بالنسبة لاسم **الشكور** وجدنا عدة أمور:

الأول: أن الله تبارك وتعالى ذكر أنه هو الشاكر والشكور سبحانه وتعالى.

الثاني: أن المولى ذكر أنبياءه سبحانه وتعالى بأنهم أعظم الخلق شكرا ، وضرب القرآن الكريم أمثلة لبعض الأنبياء يبين قيمة الشكر عندهم وكيف أن حال الأنبياء كان الشكر لله تعالى، وأنهم لم يتأخروا عنه ولم يقصروا فيه أبدا، بل كانوا في الدرجة العليا من شكر الله تعالى، وإلا فمن يكون في الدرجة العليا من معرفة الله تعالى وشكره حتى يشكره ؟

الثالث: أن الله تبارك وتعالى بين أسباب الأمر بالشكر ، فجاءت آيات كثيرة تبين أسباب شكر الله تعالى وتوضح النعم التي لأجلها أمر الله جل وعلا عباده أن يشكروه، فهل شكر الناس ربهم لما أمرهم بهذه النعم أو انقسموا ؟

الرابع: أن الناس انقسموا إلى فرق، فرقة شكرت ربها، وفرقة لا تشكر، وفرقة قليلا ما تشكر.

الخامس: أن الله تبارك وتعالى بين أن فائدة الشكر تعود إلى أهل الشكر، وأن الله تعالى لا يصل إليه من شكرهم شيء، وأنهم إن كفروا فلأنفسهم وإن شكروا فلأنفسهم.

السادس: أن الله تعالى حث على الإخلاص في الشكر.

السابع: أن الله تبارك وتعالى بين لهم جزاء الشكر وثواب الشكر وجزيل عطاء الله تعالى على الشكر حتى يسارعوا إليه.

الثامن: في نهاية المطاف بين الحق تعالى أن آيات الله تعالى لا يتدبرها إلا الصابرون الشاكرون .

١.الآيات التي ذكر فيها اسم الله تعالى الشكور والشاكر

نبدأ بهذه الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ **إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧].

وفي آيتين من سورة فاطر: ﴿ **إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر:٣٠] و﴿ **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر:٣٤] والآية الرابعة في سورة الشورى: ﴿ **وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [الشورى:٢٣].

والاسم الثاني وهو الشاكر ورد في قوله تعالى: ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ [النساء:١٤٧].

وهذه الآيات الأربعة في اسمه الشكور نراها قد اقترنت مع اسمه المكرم الغفور سبحانه وتعالى (غفور شكور) إلا في الآية الأولى: (إنه شكور حليم).

والمطالع لآيات القرآن المتدبر لها يجد فيها أن الله سبحانه وتعالى بين لعباده كيفية الشكر وطريق الشكر فلما أمرهم بالشكر في هذه الآيات الكثيرة، جاد عليهم كما هي عادته في كرمه سبحانه وتعالى على عباده أن يبين لهم بعض الطرق التي يشكرون الله تعالى بها سبحانه وتعالى، وهذا ما سوف نشير إليه بإذن الله تعالى.

٢. حال الأنبياء مع الشكر

وذكر الله تعالى عنهم ثلاثة أمور في الشكر:

الأول : بين الثناء عليهم بكونهم شاكرين، **والثاني** أنه سبحانه وتعالى بأن يكونوا من الشاكرين، **والثالث** استجابتهم لأمر الله، ودعاؤهم إياه أن يرزقهم الشكر.

وهذه المعاني معاني جميلة للمؤمنين قبل أن تكون للأنبياء لأن الأنبياء في الدرجة العليا وانتهت قضيتهم في الفردوس الأعلى وإنما لا زالت هذه الآيات باقيات للعبرة لأهل الإيمان كما ذكر الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف : ١١١]، فانظر إلى هذه المعاني الثلاثة التي بينها، ثم أكدها المولى سبحانه وتعالى بأنهم لا بد أن يكونوا على هذا الحال، انظر إلى **الأول** ذكر المولى سبحانه وتعالى نوحا فقال : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء : ٣].

وهذه تدخل تحت بند الثناء من الله تعالى على عباده، وليعلم المؤمنون أنه إذا أثنى على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم فإن الثناء الأول يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، فأي ثناء حازه أحد من الأنبياء فالنبي في الدرجة العليا ؛ لأنه سيد ولد آدم ولا فخر صلى الله عليه وسلم، الثانية : في قوله تعالى : ﴿ **شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل : ١٢١].

هذه في من؟ في سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي كذلك تحت بند الثناء على عباده الخلص من الأنبياء عليهم السلام.

الأمر الثاني أن الله تعالى أمر الأنبياء بالشكر ومن ذلك قوله لموسى عليه السلام:

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وهذا قد أشرنا إلى إنه في مثل هذا الخطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هو خطاب للأمة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك مثل قوله : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] فهو متوجه لأمة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ من يعبد هو صلى الله عليه وسلم ؟ وهو أول العابدين صلوات الله وسلامه عليه، وهو أول المؤمنين كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره الله تعالى عنه.

الأمر الثالث : وهو ما أثنى الله تعالى به على عباده الأنبياء لأنهم كانوا يدعون الله تعالى أن يبلغهم الشكر وأن يحملهم عليه جل وعلا فقال في حق سليمان : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

وهذه الأدعية في تلك الآية علاوة على طلبه فيها عليه السلام أن يبلغه ربه الشكر، وأن يزعه إليه وأن يحركه في كل أحواله أن يكون شاكرًا نرى فيها التواضع لله والإخبات له سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] إذا كان هذا دعاءهم وحالهم فما بال المؤمنين أن يدعوا ربهم، وما بال المؤمنين كذلك أن يكون حالهم مع الله تبارك وتعالى إذا كان سليمان عليه السلام يقول: ﴿ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩] وهل هو ليس من عباده الصالحين حتى يطلب ذلك؟! ولكن هذا هو الانكسار لله والتواضع له سبحانه وتعالى، وقلنا في نهاية المطاف : إذا كان هذا هو حال الأنبياء تحت هذه

البنود التي أشرنا فإن الله تعالى قد ذكر هذه الحال عن أهل الإيمان الخُلص الكُمّل الذين قد تمثلوا بأحوال الأبنياء الأجلاء الذين ذكرهم الله تعالى عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين فإذا به يقول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] وهذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين في دعائهم المتواصل إلى الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] أن يزعه لهذه النعمة، أن يوزعه لشكرها وأن يحمله عليها وألا يتركه يفرط في شكر نعمة من نعمه بل أن يجعله شاكرًا لربه راجعا له كل نعمه سبحانه وتعالى يود أن يشكرها له سبحانه وتعالى ليثبتها عليه ويزيده منها كما ذكر الحق سبحانه وتعالى.

٣. أسباب الشكر

وهي الأسباب التي بينها الله تعالى سببًا لشكره والنعم التي صرفها المولى سبحانه وتعالى لعباده حتى يتعرفوا إلى ربهم من خلالها وحتى إذا تعرفوا إلى ربهم بهذه النعم شكروه عليها.

والآيات التي أشارت إلى هذه النعم أكثر القرآن الكريم من ذكرها حتى تكون موعظة لهؤلاء الكسالى الذين قصروا في شكر نعمة الله تعالى عليهم ولم يحققوا أركان الشكر التي أشرنا إليها ولم يقوموا بشكر ربهم بالقلب واللسان والجوارح وأن يشكروا من أسدى إليهم معروفا ولننظر إلى هذه الآيات :

أولها ذكرها المولى سبحانه وتعالى في بني إسرائيل، وهي آيات عامة تدل على لزوم الشكر عند نزول مثل هذه النعم : ﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝ ﴾ [البقرة : ٥٢].

وجائت بعد قوله: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة : ٥٠] ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة : ٥١] والقضية في بني إسرائيل هؤلاء والعبرة لأهل الإيمان من بعدهم في هذا القول، وهو أن **العفو من الله تعالى عن عباده يستحق الشكر** وهي المسألة التي كنا نذكرها في رمضان يخرجون من رمضان مغفورًا لهم قد عفا الله تعالى عنهم وقد أكثروا من قولهم: (اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا) [1].

فيستحق هذا العفو أن يشكروا الله تبارك وتعالى عليه ليثبت عفوه عليهم وليزيدهم من عفوه إذ هم أهل الخطأ وأهل النسيان وأهل الشهوات وأهل المعصية والغضب التي لا بد وأن يقع فيها المؤمنون ومن، ثم فهم يريدون عفو الله تعالى في كل آن في كل وقت! لذلك كان هذا المعنى الذي يزيدهم من عفو الله ويثبت عفو الله السابق لهم هو شكر هذا العفو: ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة : ٥٢] .

والثانية : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٦].

وهذه الآية لها شبيه في قوله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

فلما قالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٥٦] وهذه من أعظم النعم عليهم أن يبين لهم قدرته

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣) كتاب الدعوات، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.

وقوته وبعد أن أفناهم وأهلكهم أحياهم سبحانه وتعالى مرة أخرى ليعودوا إلى التصديق به والإيمان به جل وعلا وليعودوا إلى طاعته سبحانه وتعالى وإلى التنعم بمعرفته، والإقبال عليه وتوحيده وذكره جل وعلا.

الآية التالية قوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه الآية في المؤمنين ونزلت بعد قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ في كفارة اليمين فأنزل الله تبارك وتعالى ذلك تخفيفًا لهم وتبيينًا لآياته سبحانه وتعالى، وإخراجًا لهم من الحنث الذي لم يكن له كفارة في الجاهلية: إما أن يفعل ما أمره الله تعالى به وإما أنه لا يزال حانثا يدخل النار فيها فجاء هذا التخفيف من الله تعالى ثم قال: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٨٩﴾ [المائدة: ٨٩].

والمؤمنون -إلا من رحم الله- لم يفكروا في أن هذه آية من آيات الله ونعمة قد أنعمها الله تعالى عليهم تخفيفا لم تكن من قبل والله جل وعلا أمرهم أن يكونوا فيها من أصحاب الشكر لله تعالى كذلك.

الآية التالية تبين أسبابا كثيرة من أسباب الشكر التي منحها الله تعالى للمؤمنين وبدل بها أحوالهم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

فكان من أسباب الشكر التي ينبغي أن يتفكر فيها المرء أنه أصبح كما ذكر النبي في الحديث (آمِنًا فِي سِربَه مُعَافَى فِي جَسَدِه عَندَه قُوتَ يَومِه، فَقد حَيزَت لَه الدُّنيَا بِحَذَافِيرَهَا[1])، لذلك قال: ﴿أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال : ٢٦] وهذه الآية جميلة في شرحها وفي بلاغتها وأسلوبها ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وأنت أيها المسكين قد آواك الله وأمنك سبحانه وتعالى ورزقك من الطيبات وفعل بك كل ذلك من غير أن تبذل شيئًا له كما بذل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أحق بالشكر إذن؟

من أحق بأن يشكر الله تعالى على هذه النعم وعلى تلك الأحوال التي لو لم يكن ربك سبحانه وتعالى هو الذي منحها للمؤمنين ووهبها إياهم ما كان ليهبها لهم أحد. من الذي يؤويك ومن الذي يحفظك ؟ من الذي يؤمنك ؟ أنت تؤمن نفسك؟ لا يُظَن بذلك ولا يؤمنك أحد لا يستطيع أحد أن يؤمن نفسه فضلاً عن أن يؤمن غيره لا في شدائد الدنيا ولا في شدائد الآخرة، ولذلك كان هذا الحال أولى بالمؤمنين في الشكر.

ننظر إلى بقية النعم في الآية التالية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [النحل : ١٤].

وهي في سورة النعم، ما سورة النعم هذه؟ هي سورة النحل، كلها نعم الله تعالى على المؤمنين وعلى الكافرين، على الكافرين لأن هناك آيات جاءت في الشكر ، قال : معنى الشكر

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وقال : حديث حسن.

من الكافرين أن يؤمنوا بالله تعالى، هذا معناها، أن يشكروا الله تعالى فيؤمنوا به أن يعلموا نعمه فيؤمنوا بها ليشكروه على تلك النعم سبحانه وتعالى.

وكل هذه النعم تستحق شكرًا من المرء لله تعالى لو تفطن إليها في الزمان الماضي وفي الزمان الحالي كذلك . ترى لو وقفت هذه النعم ووقف البحر، ولم يستطع الناس لا أن يذهبوا ولا أن يأتوا ولا أن يكون البحر مصدر الفضل – الفضل هنا معناه الرزق ابتغوا فضلاً من ربكم، يعني رزقًا من الله تعالى يسوقه إليكم – انظروا لو وقفت هذه النعم ؟ كيف يكون الحال؟

كما يود المرء أن يفهم قضيته هو مع النعمة، يعني **لا يعرف قدر النعمة إلا إذا حرمها** فإذا نظر إلى عينه ورأى الأعمى الذي لا يبصر أو هذا الذي قد طمست إحدى عينيه، لو نظر كم هو في نعمة لا يقدر قدرها ولا يستطيع شكرها، وكذلك لا يستطيع أن يحسب عظيم خطرها الذي هو فيه إلا أن تذهب منه النعمة انظر إليك لو أخذ منك شيء من جسدك؟ فهل فينتظر حتى تذهب النعمة أم أنه يشكر تلك النعم، وأن يحمد الله تعالى أن رأى هذا المبتلي وأن الله تعالى قد فضله عليه ولم يبتله بهذا البلايا التي هو بها ويكون ذلك مصدرًا دائمًا لشكر الله تعالى.

الآية الثانية من **أسباب شكر النعم** التي لا تحصى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

فهذه الآية خصوصًا جاء قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مقابلها في الآيات التي يقرؤها المرء كلها في السمع والأبصار والأفئدة وخصوصًا يجد : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ . فما السبب؟

فكان السؤال لماذا جعل لكم السمع والبصر والفؤاد ؟ قال لتشكروه. فهل يشكروه؟ قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٨].

من يطالع القرآن الكريم يجد في مقابل هذه الآيات يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨] ثم ذكرها مرة أخرى سبحانه وتعالى في سورة الملك فقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] وهذا يدلنا على المعنى الذي ينبغي أن يفهمه المرء أن السمع والبصر والفؤاد لا يشكر به ربه إلا قليل، وأن المرء كثيرًا ما يخالف ربه في شكر هذه النعمة، نعمة السمع ونعمة البصر، ونعمة القلب فيصرف هذه النعم وهذه الجارحة فيما يغضب الله تعالى.

وشكر النعم بتصريفها في مرضاة الله

ولا يشكر الله تعالى بهذه النعمة فيصرف هذه النعمة في مرضاته سبحانه وتعالى، وأن الذين يصرفون السمع والبصر والفؤاد في مرضاة ربهم قليل، ولذلك ذكر هذه الآيات المقابلة خصوصًا لأن حفظ السمع والبصر والفؤاد عند أهل الإيمان كما ذكر قليل وذلك دليل قلة شكرهم لله تعالى على هذه النعم.

من الذي استعملها في شكر نعمة الله تعالى فلم يعصه بها في سمعه وبصره وقلبه؟ يعني من الذي لم يحمله قلبه على الوسوسة والأماني الكاذبة، ويحمله قلبه على الغش والحسد والحقد والكبر وطول الأمل في الدنيا، وعدم الركون إلى الله تعالى والتعلق بالأشخاص، وعدم الطمأنينة لذكر الله تعالى والسكينة عند قراءة كتابه ؟ من؟

الأوضح والأظهر هو السمع والبصر، انظر إلى السمع والبصر قليلا ما تحفظهم كأنه يقول : قليلا ما تحفظون هذه الجوارح، خاصة التي قد خلقها الله تعالى لكم لشكره فلم يشكروه بها وإنما قليلا ما شكرتم لهذه النعم حقها الذي أعطى الله تعالى، وهذا تهديد من الله تعالى للمؤمنين على عدم شكرهم، أو على قلة شكرهم لهذه النعم بأن يصرفوها في غير مرضاته أو أن يصرفوها في معصيته والغفلة عنه سبحانه وتعالى . هذا تهديد لهم في هذه النعم لذلك قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٢] هل شكروا ؟ قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] فهددهم بهذه القلة لتكون سببًا قويًّا كما في كيف يصرف المرء هذه النعم الثلاثة.

وهذه الثلاثة قد تكررت في القرآن خصوصًا من دون جوارح المرء السمع والبصر والفؤاد؛ لأن **سلامة القلب غالبًا ما تكون من سلامة السمع والبصر**، سلامة القلب تكون من سلامة السمع والبصر؛ لأن المرء إذا ترك سمعه وبصره للمعصية أثمرت في قلبه.

لو تركت بصرك للنظر المحرم انطبعت هذه الصورة في قلبك لا تخرج إلا برحمة الله بعد ذلك .

فمن تفرج على صور او نظر إلى محرم أو كذا أو كذا أو حتى الصور العادية التي يراها المرء إذا به تنطبع في قلبه هذه الصور، ولا تخرج من قلبه إلا برحمة الله تعالى أن يدركه عفو الله جل وعلا في ساعات رضا من رضاء الله تعالى عليه قدم فيها توبة أو عملاً صالحًا أو خشية وإنابة لله تعالى فمحا عنه هذه الصور.

وكذلك السمع أن يسمع كل هذه المسموعات المحرمة فيه أقرب الطرق إلى القلب لتدخل إليه لتنطبع فيه هذه الأمور .

تجدك تسمع شعرًا تجد قلبك يردد هذا الشعر، تسمع كلامًا فارغًا تجد قلبك يردد هذا الكلام الفارغ وتتفاعل معه، وذلك لكون هذه الجوارح هي أقرب الطرق الموصلة إلى القلب وفساده، وكأنه إذا حفظها بشكرها فصرفها في مرضاة الله كانت المساعد الأكبر في حفظ هذا القلب وبعده عن تلك الصور، وتلك الآفات التي تفسد القلب فسادًا لا يرجى صلاحه.

وهذا مما يخيف ويحذر المرء حتى يحاول أن يشكر نعمة الله تعالى في سمعه وبصره وقلبه ليستقيم له هذا القلب **فإن شكر الله تعالى بهذه النعم هذه الجوارح فصرفها في مرضاة الله وحافظ عليها استقام له قلبه، وإن حافظ على قلبه فلم يدخل فيه ما ينافس فيه الدار الآخرة، وينافس فيه توحيد الله**؛ لأنك إذا أدخلت في هذا القلب هذه الشهوات وتلك الشبهات فإنها تنافس في محل معرفتة الله وتوحيده والتعلق به والإقبال عليه سبحانه وتعالى ومحل الطمأنينة بذكره؛ فإذا ما أدخلت في هذا القلب ما ينافس هذه المحابّ وهذا التوحيد وتلك المعرفة زحزحت وزلزلت في قلبك التوحيد والتعلق بالله، والتوكل عليه والإنابة إليه زلزلت فيه الخشية والخوف من الله جل وعلا فإذا بك لا تبالي وصار قلبك مريضا وينتقل بعد ذلك هذا القلب إلى أن يكون قلبا فاسدا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا قلبًا صلبًا من المعصية لا يتأثر بالموعظة ولا تنجع فيه هذه الأدوية من علاج القلب.

هذه استطردنا فيها شيئا ما حتى يتعلم المرء شكر هذه الجوارح التي ذكر الله تعالى أنها نعمه التي ينبغي ألا يُعصى بها.

ثم قال تعالى: ﴿ **وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الحج: ٣٦].

وهي نعمة لو يتخيل المرء الزمان الماضي في وجود النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة كم كانت نعمة عظيمة **أن يسخر لهم هذه البدن ليسيروا عليها وليحجوا عليها ولينحروها وليوزعوا منها، وليأكلوا وليطعموا القانع والمعتر**، وليحملوا منها إلى أهلهم وأولادهم إن كان مشروعًا شيء من ذلك إلى غيره من هذه الأمور التي أحلها الله تعالى لهم، وسخرها لهم سبحانه وتعالى وما كان لأحد أن يستطيع أن يسخر ذلك .

وانظر إليك لو انطلق جمل وشرد وجرى بنفسه ما يستطيع أحد أن يوقفه أبدا، هل يستطيع أن يوقفه أحد ؟ ولو تجمع عليه مائة لا يستطيعون جملاً واحدًا، انظر إذن إلى نعمة التسخير.

لذلك ذكَّر الله تعالى بها المؤمنين في أكلهم وشربهم وصدقاتهم في حجهم وعمرتهم وفي سفرهم وسيرهم، وفي حملهم وركوبتهم كما ذكر الله تعالى بقية أحوال هذه النعم كما ذكر الله تعالى.

ثم ذكّرهم بنعمة أخرى لا يستطيع أحد أن يسخرها لهم : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧٣].

وهذه نعم لا يدريها المرء أبدًا، وهي نعمة أن يجعل الليل لتسكنوا فيه ، و النهار لتبتغوا من فضله ، فالسكون في الليل هذه من المسائل العظيمة التي لا يتخيلها المرء أبدًا.

جاء شخص يقول لي، لا تتخيل نعمة الله علي المرء في أن ينام هادئًا مطمئنًا من غير حبوب منومة ولا مشاكل ولا ولا، لو أصاب أحد اضطراب أولم يحس بالأمان، لو أصابه قلق أو اضطراب أو خوف أو أرق أو ذهب النوم أو ابتلي بعدم النوم انظر إليه.

وشخص آخر جاء يقول لي : أنا لا أعرف أنام بالليل ، أوشك أن يُجن !

انظر إلى هذه النعمة التي لا يتخيلها أحد بأنه ينام هكذا مطمئنًا ويغمض عينه ويصحو مستريحا من عناء ما كان فيه أو أن يرزقه الله بعض الرؤى الجميلة، لا تتخيل هذه النعم!

انظر إليك وقد حرمت النوم لخوف لأرق، أو قد حرمت النوم لمرض أو لعلة، وانظر إليك وأنت عليل لا تستطيع أن تنام وتقول : يا رب أريد أن أنام قليلاً، انظروا لي شيئًا ينومني، أريد أن أنام، خمس دقائق فقط أو نصف ساعة لأستريح ويبكي لأنه يريد أن ينام !

من أجل ذلك قال الله هذه المرة : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٣]، بخلاف تسخير الأنعام يقول فيها : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم ﴾ [الحج : ٣٦] والتي قبلها : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم ﴾ [النحل : ٧٨] ولكن في نعمة النوم هذه قال : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٣]، فهذه رحمته بالضعفاء والمساكين الذين لو لم يناموا قليلاً قد يصيبهم الجنون !

نعمة أخرى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٠].

وانظر إلى تمكين الله لعباده في الأرض ، تخيل لو كانت هذه الشوارع على غير هذا الحال ولو كانت هذه الأرض على غير هذا التمهيد الذي مهّده الله تعالى لها ما استطاعوا أن يعيشوا فيها ولا أن يمشوا فيها ولا أن يمشوا في مناكبها كما ذكر الله تعالى وأمر ، وما استطاعوا أن تقوم فيها حياة صالحة ولا عبادة صالحة وما استطاعوا أن ينشئوا فيها حضارة ولا علمًا ولا تقدمًا ولا غيره ما استطاعوا أن يخرجوا من بيوتهم ، فانظر إلى قوم قد حبسوا في بيوتهم لا يستطيعون فلو كانت هذه الأرض محفورة ينزل المرء من بيته يقع في حفرة لا يستطيع أن يخرج منها مثلاً

من الذي سيخرج من بيته فهذه الحفر التي هو فيها لا يستطيع أن يخرج منها، وأنه لو وقع في حفرة ما استطاع الخروج فماذا سيفعل الناس ستقف معايشهم وتقف عباداتهم وتقف أعمالهم وأشغالهم وانتظروا الموت يعني بعد التمكين فيها جعل لكم المعايش التي لولا التمكين ما استطعتم أن تسيروا لتحصيل هذه المعايش ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

يقول كذلك سبحانه وتعالى في تعديد النعم التي لأجلها أمر بالشكر: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الجاثية : ١٢] .

فسخر البحر لتبتغوا من فضله، يعني لتبتغوا الرزق الذي سخره لكم لو انقلب البحر عليهم ما استطاعت الدنيا من أولها لآخرها من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة أن يسيروا في البحر لو البحر هاج بطريقة لا يمكن لأحد أن يوقفه ، لا يستطيع أحد، لا القوة العالمية ولا الأمريكية ولا أي قوة في العالم بدليل أنه لو حدث فيضان في أمريكا تجد القتلى في الشوارع ملقين، وتجد الناس قد هجِّرت وتجد الغابات وقد احترقت، وتجد البيوت وقد هجرت، وتجد كل معالم الأسى والحزن في فيضان صغير لا يستطيع أحد أن يسخره إلا بتسخير الله ولا يقوى على ذلك إلا الله جل وعلا.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٧ - ٧٠] .

والله تعالى قد جعل هذه الآية لبني إسرائيل، الضفادع والقمل والدم يأتي مفصلات كلما يرفع أحدهم ماء ليشربه يجده صار دمًا، حتى استغاثوا بموسى عليه السلام ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف : ١٣٤]، انظر لو جعله سبحانه وتعالى أجاجًا ؟ ولكن النعم لما كانت كثيرة، ولا يلتفت إليها المؤمنون فضلاً عن غيرهم

ليشكروا الله تعالى عليها فإذا بهم لا يتخيلون أنها نعم إلا أن يحرموا منها ، وقد حرم منها الناس ليبين الله تعالى قدرته، وليبين نعمته.

عندما يحدث مجاعة أو يحدث قحط، أو يحدث تصحر لبعض البلاد كما حدث في القريب، يحدث زلزال أو غيره يحرموا نعمة الماء العذب فإذا بهم لا يجدونه، كل يوم لكل واحد منهم كوب ماء عذب فقط ، تجد الناس يقفون عرايا لا ماء ولا طعام ينتظرون من يعينهم أو يدفع عنهم شيئًا، ثم يقتتلون على كوب من الماء تراهم لو ورزع عليهم الماء المالح هذا كانوا يشربونه!

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

انظر إلى ترتيب هذه الآيات، وإلى المعنى المطلوب فهمه منها وتأمل هذا الحال من أحوال الأنبياء، هذا الدعاء الجميل من إبراهيم عليه السلام لما ترك ذريته بوادٍ غير ذي زرع دعا الله تعالى أن يرزقهم من الثمرات، لماذا؟ قال لعلهم يشكرون.

أما آية يس في قوله :

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس : ٣٥] .

وقوله ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس : ٦٨- ٧٢] ، ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس :٧٣].

الآية التالية قال المولى تبارك وتعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [االأنبياء : ٨٠] .

وهي عامة في كل ما يدعو إلى الشكر قال : فهل أنتم شاكرون أم لا؟ ستشكرون فتؤمنون وتصرفون هذه النعم في مرضاة الله تعالى أم أنكم تنتظرون بترك الشكر محق هذه النعم وزوالها؟ وقد ذكر لهم سبحانه وتعالى كثيرا من النعم ومن الأفضال ، نعمة الإيمان ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١٧] .

ومن قوله سبحانه وتعالى في رزقهم المحبة بينهم وبين إخوانهم: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٣] وقوله: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وغيرها من النعم كما قال المولى سبحانه وتعالى فقد تاب عليهم وغفر لهم وهيأ لهم هذه السبل من سبل الصلاح والتقوى والاستقامة كل ذلك من نعم الله تعالى على المؤمنين التي لا بد وأن يتفكروا فيها حتى يشكروا هذه النعم .

٤.انقسام أحوال الناس في الشكر

لمّا بين الله تبارك وتعالى أسباب الشكر وجزاء الشكر، أمر الله سبحانه وتعالى الناس بالشكر ، فهل شكر الناس ، أم انقسموا؟ انقسم الناس إلى فريق يشكر، وفريق قليل ما يشكر، وقليل من عباده الشكور، إلى آخر الآيات التي بينت انقسام الناس في الشكر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٨] .

يعني حتى الذي يشكر الله تعالى يشكره قليلا ثم ينصرف يعني يتذكر هذا الدرس مثلا ثم يذكر الله ثم يتفكر قليلا في النعم فيقول الحمد لله والله هذه نعم كثيرة من الله ، الحمد لله ثم ينصرف وينسى هذه النعم مرة أخرى فهل هذا هو الشكر ؟ ذلك كالخوف تمامًا حيث يسمع الموعظة والحديث عن النار والميزان والصراط والكرب التي لا طاقة لأحد بها ويبكي قليلا ثم بعد ذلك يخرج فيضحك ويتكلم عن النساء والأموال والأولاد كأنه لم يبك من شيء ! هذا هو البكاء المذموم وهذا هو الشكر المذموم إن كان ثَمَّ شكرًا أو أطلق عليه ذلك.

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة:٩] .

وقد ذكرنا لماذا قلّ شكرهم مع نعمة السمع بالذات وانظر إليك قد علمت ذلك أيها المسكين أن السمع والبصر مما لا تتمكن من شكره وانظر إليك قد شكرت نعمة السمع أو نعمة البصر كيف وقع منك بصرك في اليوم والليلة كم مرة مع أن شكر هذه النعمة أولها أن يحفظ هذا البصر من أن يعصي الله تعالى وانظر كم عصيته به وانظر إلى السمع كم عصيته به من الذي حفظ سمعك أو بصرك يومًا كاملا ليرى كيف أنه لم يشكر نعمة الله تعالى لذلك قال: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ثم بين أن أكثر الناس لا يشكرون، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

هؤلاء هم الناس وهذه علاقتهم بالله تعالى فيما أنعم عليهم .

وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف:٣٨].

وعندنا يقول المولى سبحانه وتعالى لك: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لا تقول له: شكرًا وانتهت القصة ! إن هذه الآية موجهة إليك وخطاب المولى سبحانه وتعالى موجه إليك إن كل آية من آيات الله تعالى فيها حديث لك والله تعالى يتكلم به إليك ولك فيه حظ ولك فيه عبرة ولك فيه فائدة ولك فيه توجه الخطاب من الله تعالى ، فهذه الآيات لا تقال للتسالي وإنما ذكرت هذه القصص في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١].

ثم قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ كأنه يقول لك لا تكن من أكثر الناس الذين لا يشكرون ولكن كن من الشاكرين فافهم هذه الآية واعلم معنى الشكر فيها ثم اشكر الله تعالى إذا وفقك لشيء منها.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس:٦٠].

الأولى بالتأكيد في أكثر الناس وكان يمكن أن يقول: ولكن أكثرهم لا يشكرون ولكن لتبيين أن الناس لا يشكرون.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر:٦١].

ثم قال في النهاية في حق المؤمنين: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

والشيطان لما علم ذلك قال لله تعالى: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف:١٦] إلى آخر الآية حتى قال: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٧] فيقف لهم الشيطان حتى يكون كل همه ألا يكون أكثر شاكرين أبدا وكأنك أيها المسكين عندما تسمع هذه الآية إنما اتبعت الشيطان وصدقت فيه قوله لله تعالى وصدقته في هذا القول يعني صرت صديقًا له وصاحبًا له وإنما لما قال ذلك لله تعالى ، إذا بك تقول: نعم نعم أنا صديقك أيها الشيطان ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ لن أكون شاكرًا وسأتبع كلامك وأسمع قولك وأخرج عن معنى الشكر !

هل هذا هو معناه ؟ لا ، المعنى الحقيقي إذن للآية: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ لتقول: سأجاهد نفسي وأدافع شيطاني وسألزم طريق الشكر حتى لا ينطبق عليّ هذا المعنى ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ بل يدخل في القليل الذين ذكر الله في قوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

هل وقف الأمر عند هذا الحد ؟ أن لا تجد أكثرهم شاكرين ؟ وأكثرهم لا يشكرون ؟ وقليلا ما يشكرون ؟ لا لم يقفوا عند هذا الحد ، ولكن زاد الجحود بنعمة الله تعالى فقد صور الله تعالى هذه الحالات وبينها للمؤمنين ليتعظوا بها قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] .

وفي سورة يونس: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وهذه الآيات تبين المعنيين المعنى المضاف ومعنى النعمة معنى الهلاك، ومعنى النعمة والتي لا ينفك المرء منها عندما يصاب بمرض يصاب بمصيبة في نفسه في ولده في كذا وكذا يقول: والله لو أن الله نجاني من هذه المسألة لأفعلن كذا وكذا وكذا ، وأول ما ينجيه الله ينسى وهي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [يونس:١٢] .

ومعنى هذا أن يصيبه الضر في المال في الولد في المرض في غيره ثم بعد ذلك قال: يدعو ربه قاعدًا وقائمًا وعلى جنبه ثم إذا كشف الضر عنه مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه !

ابن عمر رضي الله عنهما كان ماشيًا مع محمد بن سوقة ، من التابعين ، قال: لقد رأيتنا هذا العام الماضي وكنا نمشي من هنا وكنا في كرب شديد - كان ذلك أيام المختار والحجاج وقصص قتل وسجن وتعذيب - والآن نمشي في هذا الأمان قال: هل دعوت الله تعالى عنده؟ ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ارجع فادع واستغفر واشكر واذهب إلى هذا المكان الذي كنت فيه أو إلى هذا الحال الذي مر بك واشكر الله تعالى عليه وادع الله تعالى كما ذكر ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾.

وهذه الحال من الأحوال التي نحن فيها وقد ذكرت هذه الآيات كثيرًا ، والعكس ذكرتها الآية: ﴿ لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٨٩] إذن فالآية الأولى في كشف الضر والآية الثانية في إرادة النفع وإرادة الخير من الولد والمال والجاه يعني لو أن الله رزقني الولد أو لو أن الله أعطاني كذا وكذا فإذا أعطاه نسي ما كان يدعو به من قبل كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى:٤٨] والآية الأولى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ ﴾ [هود: ٩، ١٠] وهذه التالية في معنى نكران هذه النعم وعدم مقابلة هذه النعم بالشكر الذي أمر تبارك وتعالى به.

٥. فائدة الشكر عائدة على الشاكر

قال تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾ [النمل:٤٠].

فإذا الله تعالى أمركم بالشكر فانقسمتم في هذا الشكر إلى (قليلا ما تشكرون) و(لكن أكثرهم لا يشكرون) وإلى جاحدي نعم الله تعالى ونسيانها قال تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:٤٠] والثانية: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان:١٢].

وهذا ليس معناه الإخبار فالناس يعتقدون أن الذي يشكر فهو يشكر لنفسه والذي يكفر فإن ربنا غني حميد ! لا، ليس معناه الإخبار لأنه من المعروف أن الذي يشكر يشكر لنفسه والذي يكفر فإن الله غني ، والمعنى أن الله تبارك وتعالى يتهددهم بهذه الآية من ناحية ويحملهم على الشكر وترك الكفر من ناحية أخرى.

فالمعنى أن من شكر سوف يأتي ومن لم يشكر سوف يأتي ومن كفر سوف يأتي، وكل إنسان سوف يرى ما قدمه لنفسه ويحاسب عليه فمن ترك الشكر فسوف يحاسب عليه . فلا تظنون أن ذلك سيمر أن ، لا بل إن من شكر سيجد آثار الشكر ومن كفر سيجد غُب ذلك ومصيبة ذلك وعذاب ذلك ونقمة ذلك وسخط ذلك من الله تبارك وتعالى.

ثم آيات أخرى في الشكر نشير إليها وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ [النمل:٤٠].

فهذه النعم التي أعطاك الله تبارك وتعالى هي محض فضل الله تعالى. وأنت لا تستحق شيئًا من نعمه سبحانه وتعالى ولم تقدم شيئًا لله تعالى يعطيك عليها هذه النعم . من الذي ولد فقدم شيئًا لله تعالى فأعطاه الطاعة والعبادة والسمع والبصر والقوة والمال والأسرة ؟ من الذي فعل ذلك ؟ بل هو فضله ابتداءً وانتهاءً ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [النحل:٥٣] إذن فالمسألة أن ذلك كله إنما هو اختبار الله لك وامتحان الله لك أيها المسكين لتشكر أو تكفر لا ثالث لهما !

فمسألتك اليوم إذن **كيف تخرج من كفر هذه النعم** وكيف تخرج من هذا الابتلاء ناجحًا فيه لتشكر أو تكفر لتعدد هذه النعم وتحاول أن تشكر شيئًا منها عل الله تعالى أن يكون قد وفقك لشكر نعمه فيستحق سبحانه وتعالى بذلك شكرًا مزيدًا منك أو أن الله تبارك وتعالى قد اعتنى بهؤلاء المساكين لمّا رآهم حزانى على تركوا شكر نعمة الله تعالى ففكروا في هذا الشكر وحاولوا أن يشكروا نعمة الله فوفقهم إلى ذلك.

٦.الإخلاص في الشكر

مسألة أخرى من مسائل الشكر، وهي مسألة من مسائل الإخلاص التي ينبغي أن يتعلمها المرء أن المرء لا ينتظر من أحد شكرًا على نعمة فقد قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان:٩].

فإذا كان المرء مأمورًا بالشكر فإنه في نفس الوقت ليس مأمورًا بانتظار شكر الشاكر ولا بثنائه ولا بمدحه ولا بتعويضه عما فعل له.

المرء مأمور بأن يشكر من أسدى إليك معروفًا كما قال النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) [1]. ولكن إن أنت شكرت أحدًا أو أهديت له جميلاً أو صنعت له معروفًا هل من الإخلاص أن تنتظر أن يفعل لك معروفًا أو أن يقف إلى جوارك أو أن يعودك إذا مرضت أو أن يقف لك أو أن يواسيك في أحوالك كما فعلت له ؟ هذا خارج عن حد

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

الإخلاص، لماذا ؟ لأنها لوجه الله ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ يكفيه أن الله تعالى سيشكره ومن ينتظر شكر الناس على خسة قدره بشكر الله تعالى ؟

فالذي يقول لوجه الله يعني ينتظر شكر الله تعالى فكيف يترك شكر الله تعالى ويستصغره لينتظر شكر المخلوق الزائل ؟ بل إذا لم يشكره المخلوق حزن منه وتضايق وتألم وشكى وبكى وقال وقفت له فلم يقف لي وواسيته فلم يواسني ومرضت فلم يعدني وأعطيته وحرمني وكذا وكذا مما نسمع اليوم.

فإذا أردت وجه الله تعالى لا تنتظر شكر معروفك من أحد ولا تنتظر شكر العبد الفقير الزائل وتنسى شكر الله تعالى الذي ينتظرك في الأولى والآخرة وتستحقر شكر الله تعالى وتستعظم شكر المخلوق وتتضايق إن لم يشكرك المخلوق وتنسى ولا تفرح بشكر الله تعالى.

ونهاية القول أن الناس إذا فعلوا ذلك كان سعيهم مشكورًا، وقد ذكر الله تعالى وبين أن الله قد شكر سعيهم شكرًا لا ينتظرون بعده شيء لا مزيد عليه من شكر أحد ولا مزيد عليه من ثواب أو عطاء كما قال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإنسان:٢٢].

٧. جزاء الشكر

وأول هذه الآيات التي تبين جزاء الشكر قوله تعالى:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧]

والاستفهام هنا معناه أن الجواب بمعنى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ يعني لا يفعل الله بعذابكم شيئًا ﴿ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾.

وكأن الإيمان والشكر سبب لعدم العذاب، وخصَّ الله تبارك وتعالى الشكر بالذات من قضية الإيمان، فلماذا؟ يعني لو قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ** ﴾ لكان كافٍ أن المؤمنين لا يعذبهم الله تعالى إلا ما وقع منه بسبب يستوجب التعذيب في الآخرة سبحانه وتعالى حتى إذا أخذوا قسطهم من مخالفة الله تعالى تعذيبًا خرجوا إلى الجنة بشفاعة الله تعالى في نهاية المطاف أليس كذلك في عقيدة أهل السنة؟ إذن لماذا خصص الشكر إذن في قوله : ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ** ﴾، وقدَّم الشكر عن الإيمان ؟

قال : لأنه أهم شعبة من شعب الإيمان التي لا يعذب الله وتعالى بسببها؛ ولذلك قال المولي سبحانه وتعالى ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ** ﴾، يعنى لأن صدقتم الشكر؛ سواء لم تشكر النعم التي أنعم الله به عليكم؛ **لأن الجحود والكفران لنعم الله تعالى بأمرين:**

إما بترك شكر هذه النعم كما هو الحال الغالب في أحوال الناس المؤمنين أن يترك شكر نعم الله تعالى فيكون كفرًا له أو **بأن يسخِّر ويصرِّف هذه النعم في معصية الله**، فيكون كفرًا له، ولكنه درجة أسوأ من درجة ترك الشكر عليه.

وهذا ملحوظ في أحوال المؤمنين ، الله تعالى ينعم عليهم بالمال والولد والصحة والفضاء، ينعم عليهم سبحانه وتعالى بالإيمان والعمل الصالح، والقيام والصيام والذكر وقراءة القرآن، وينعم عليهم بالتوفيق إلى هذه الأعمال الصالحة، ويحفظهم سبحانه وتعالى من الوقوع في الزلل والمعصية والخطيئة؛ إذا بهم يتركوا شكر هذه النعم يترك شكر نعمة القيام، أو شكر نعمة الصيام، يترك شكر قراءة القرآن، أو الذكر أو الإقبال على الله، أو أن الله سبحانه وتعالى يحفظهم من الوقوع في المهالك والمآثم التي يقع فيه غيرهم إذا بهم يحرموا هذه النعم.

فبعد أن كان يجد حلاوة الإيمان وطعم الإيمان إذا به لا يجد ذلك، ويرى من قلبه النكران ويرى من قلبه الجفاء، ويرى من قلبه القسوة والبعد ويرى من نفسه الحزن على هذه الأحوال التي وصل إليها، وسببها المباشر ترك الشكر لأن الله تعالى لا يظلم أحدًا.

فإن عاد مرة أخرى إلى التوبة والعمل الصالح شكر لله تعالى له، ما كان واستدرك ما قصر في التوبة وما وقع فيه، ومحاسبة نفسه على أحواله التي أساء مع ربه سبحانه وتعالى، إذا بالله تعالى يكرمه مرة أخرى ويعود به إلى باب الله تعالى، وإلى الوقوف بين يديه، ويفتح عليه بأنواع الطاعات والقربات.

ومن معاني قوله تعالى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾، أن المولى جل وعلى كأنه يقول إن لم تشكروا وتؤمنوا ستعذبوا، وهو القول ذاته في الآيات الأخرى.

و قوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ في جزاء الشكر وهو أن الله تبارك وتعالى يشكر عباده الشاكرين، وأن الله تعالى يشكرهم بأن يثبت ما هم فيه من نعم ويزيدهم عليه؛ لأنه لما قال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧]، دل على النعم التي هم فيها فيثبتها لهم ويزيدهم منها؛ فإن الزيادة تدل على تثبيت الموجود، لا يمكن أبدًا أن تشكر الله تعالى يمنع عنك بعض النعم ويزيدك في الآخرة، لا وإنما يثبت هذه النعم الموجودة، ثم يزيدك سبحانه وتعالى منه أو من نعمة أخرى ليست على بالك؛ لأنك تفعل الأفعال الصالحة تشكر الله تعالى عليه باللسان والقول كما ذكرنا باللسان والقلب والجوارح؛ إذا بالله تبارك وتعالى يزيدك نعمًا، ويفتح لك بابًا من أبواب الخير لم تكن تعهده من قبل، ولم تكن تعرفه أنت تسير في حاجة تنظر تجد ربك فتح لك بابًا آخر من أبواب الخير، ومن أبواب البر، ومن أبواب العمل الصالح.

ربما أنت بالذكر أو بقراءة القرآن، والتوبة والعمل الصالح إذا به مثلاً يفتح لك باب الحج أو باب الصدقة أو باب السعي على مصالح المسلمين، أو باب القيام على أرملة أو مسكين أو فقير، أو يفتح لك باب من أبواب بر الولدين، بأن تحج لهم ، أو ييسر لك طريقًا من طريق الإحسان والصلة إلى غير ذلك.

والآية الثاني في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

وهذه الآية قد جاءت مع قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى الآية أن الثابتين على طاعة الله تعالى دليل شكرهم على هذه الطاعة أنهم ثابتون على إيمانهم؛ لأنه ذكرهم بقوله ومن ينقلب على عقبيه لا يضر إلا نفسه ؛ لأن الله تعالى لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة؛ لذلك قال ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾، والذي لا ينقلب على عقبيه هو الذي يثبت في هذه الشدة.

وهذا ما حدث لمّا مات النبي صلى الله عليه وسلم منهم من انقلب على عقبيه وهذه دلالة الآية على هذا المعنى وهي من معاني أعلام النبوة، وهو الإنباء بالغيب قبل أن يقع.

وأمرهم بالثبات؛ لأن الثبات هو الشكر على هذه النعم، وهذا من نعمة الإيمان؛ لذلك في هذه الآية وصية إذًا للمؤمنين بأنهم لا بد أن يثبتوا على هذا الإيمان، وأن يثبتوا على تلك الطاعات، وأن ثباتهم ذلك هو شكرهم على هذه الطاعة.

أنت عندما تنقلب على عقبيك قد تَفسد وتُفسد ؛ لأنك تكون سببًا لإفساد غيرك بأن ينقلب كذلك على عقبيه، أما إن ثبتَّ على ذلك فثباتك صلاح لك في نفسك وإصلاح لغيرك بثباته، فدل على كونك قد شكرت الله تعالى على هذا النعم، واستمسكت بالشكر، فكان جزاء الأوفياء من الله تعالى في قوله ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ والثابتين هم الشاكرون الذين سيجزيهم الله تعالى.

وتلاحظ في الآية أن الله تعالى قال: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ قد حذف المفعول به، **يجزيهم بماذا ؟ قالوا:** تخير ما شئت في ذلك، وهذا معنًى من معاني البلاغة، وهو أن الحذف يفيد العموم في هذه الآيات يعني ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ تخيل ما شئت من الجزاء فدل ذلك على أنه جزاء عظيم أبهمه الله تعالى لعظمته ولأنه لا يمكن أن يدركه أحد ، لأنه لما قام بهذا الثبات على دين الله كان صالحًا مصلحًا، ومنع الفساد والإفساد في دين الله تبارك وتعالى فكان هذا الجزاء الذي لا يعلمه إلا الله قال: (وسنجزي) يعني سنتولى نحن جزاء الشاكرين وهذا لا يعلمه إلا نحن فيما نقدمه لهم من عطاء ومن ثواب ومن آخرة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٥] وهناك فارق بين من يرد ثواب الآخرة ومن يرد ثواب الدنيا ، فمن يرد ثواب الآخرة لابد له من الصبر الشديد.

٨. آيات الله تعالى لا يتدبرها إلا الصابرون الشاكرون

الآية الأولى في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:٥].

الآية الثانية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان:٣١].

ثم بعد ذلك في سورة سبأ في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ:١٩] .

وقد جائت بعد قوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ:١٧، ١٨] .

ثم جاء بعدها: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠] .

والآية الرابعة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٣] .

بعد الإشارة إلى الإجمال في هذه المعاني نشرح إن شاء الله تعالى بعض الآيات بالتفصيل ، ولكن ينبغي أن يعرف كل أحد هذه القضية مجملة لتكون زاده الذي ينبغي أن يتزوده به ، وليعلم به توفيق الله من عدمه له هو كيف يجلس ليعدد شيئًا من نعمه سبحانه وتعالى .

فإذا لم تجلس علمت أن الله لم يوفقك بعد ولم يسقها سبحانه وتعالى إليك ولم يبصرك بمواضع النعم وتركك لا يريد منك شكرًا ، وهذه علامة ينبغي أن تتفكر فيها قبل استكمال معرفة شرح آيات الله تعالى.

الشرح التفصيلي للآيات

الشرح التفصيلي للآيات

وكما هو منهجنا أن نعود إلى بعض هذه الآيات الكريمات التي أجملناها لنفصل شيئًا منها حتى يكون ذلك توضيحًا للصورة، لتبين هذا الجمال القرآني، وهذه المعاني البديعة في هذه الآيات الكريمات وأن يكون كذلك تبيينًا لجوانب هذا الاسم المشرف من أسماء الله تعالى الحسنى.

والسبب الثاني لهذا التفصيل، أن نحس بهذه الأسماء الحسنى الجميلة **ونعرف كيف نعبد الله تعالى بها، وكيف نأخذ بحظنا منها**، وكيف نتصف بهذه الأسماء الحسنى؛ لأن ذلك كما أشرنا يعتبر طريق الكُمَّل في هذا العالم، أولئك الذين يعبدون الله تعالى بهذه الأسماء الحسنى والصفات العليا هم خلاصة هذا العالم كما ذكر الإمام ابن القيم.

الآية الأولى:

﴿**إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [التغابن:١٧].

فقد بينت **طريق الشكر** وهو الإقراض لله تعالى قرضًا حسنًا.

وبينت **جزاء الشكر** وهو يضاعفه لكم ويغفر لكم.

وبينت **سبب من أسباب الشكر**، وهو مغفرة الله تعالى الذي غفر لهم على تقصيرهم وتفريطهم وتجاوزهم وسيئاتهم وذنوبهم.

فالله يستحق الشكر، فإنه يشكر القليل من العمل ويشكر بالكثير من الثواب فشكر الله سبحانه وتعالى نعمة فالله تعالى هو الذي أعطاك ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧] ومع ذلك هو يثيبهم ويشكر لهم ذلك فلما شكرهم على ذلك استحق الشكر.

إن القرض في هذه الآية بمعنى الإنفاق والبذل من المال، والله تعالى سماه قرضًا؛ لأن المال الذي ينفقه المرء يقع في يد الله قبل أن يقع في يد السائل، وأن الله تعالى يربي لأحدكم هذا الدرهم الذي أعطاه كما يربي أحدكم فلوه حتى يصير مثل جبل أحد [1]، هذا النزر اليسير الذي تنفقه لله تعالى، فمعنى قوله: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ إن تنفقوا.

وقوله ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، بعد قوله: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ هذا يسمى "استئناف بيان" ، بأن قال أن تقرضوا المولى سبحانه وتعالى قرضًا حسنًا، فإن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خيرٌ عظيمٌ، وبعد أن جعل الإنفاق خيرًا جعل الإنفاق سبب الفلاح والفلاح هو البقاء والظفر في الأولى والآخرة.

فالمولى عندما يقول: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ فكيف يكون الإنفاق خيرًا لنا؟ قال: يكون الإنفاق خير لكم لأنه يُضاعف لكم هذا الإنفاق ويُغفر لكم به.

وهذا هو المعنى الجميل وهو أن الإنفاق من المال الذي هم مستخلفون فيه وبذل المال للفقراء والمحتاجين والمُعسرين ولإخوانهم وأحبائهم وفي سبيل الله وفي الجهاد والبذل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، **فهذا القرض الذي تقرضه الله تعالى سيُضاعف لك** فإن أقرضت مبلغًا قليلاً، فأنت تخاف أن ينقص مالك؟ قال: لا ستعوض عنه بأكثر منه أضعافًا كثيرة كما قال

---

(١) إشارة للحديث الذي رواه البخاري (١٤١٠) كتاب الزكاة -باب الصدقة من كسب طيب، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها .

المولى سبحانه وتعالى قبل ذلك في سورة البقرة: ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ** ﴾ [البقرة:٢٤٥].

فالقرض إذا يطلق على الإنفاق المأمور به إطلاقًا بالاستعارة والمقصود في هذه الآية هو الاعتناء بفضل الإنفاق المأمور به، والمقصود أن الشارع يعتني بقضية الإقراض، وإخراج شح النفس لأنه قال: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر:٩]، فعلق فوزهم وفلاحهم على إخراج هذا الشح وعلق المضاعفة لهم والمغفرة على هذا الإقراض.

ولما قال: ﴿ **إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** ﴾ فكان الأمر مكررًا للاهتمام، فدل بهذا التكرار في الآية أنه يعتني بالإنفاق في سبيل الله، وأنه طريق من طرق المغفرة بل هو طريق من طرق الشكر لأن الله تعالى قال: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [إبراهيم:٧] **فإن أقرض الله تعالى فقد شكر هذا المال** وحينئذ ينتظر المزيد لذلك ينتظر شكر الله تعالى وشكر الله تعالى بالمزيد من هذا المال فإن بذلت مالاً كان شكر الله لك عليك بمزيد المال يعني بمزيد الخلف لك بمزيد العطاء بمزيد المضاعفة لما أنفقت إن أقرضت الله تعالى وقتًا وجهدًا وكذا وكذا مالاً وقتًا جهدًا صحة سعيًا كل ذلك لا يضيع، بل يزداد كما أشار إليه المولى عز وجل حتى ذلك الماشي الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ **وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾** ﴾ [التوبة:١٢١].

وذكر أنه قرض من العبد لربه، فقال: (إن تقرضوا) ولم يقل: (إن تنفقوا) ترغيبًا للعبد المسكين في الحث على البذل والإنفاق، **كأنك أنت أيها المسكين تقرض ربك سبحانه وتعالى وكفى بهذا ترغيبًا وتلطفًا في الطلب** وإذا جعل المنفق كأنه يعطي الله تعالى مالاً فذلك من معنى

الإحسان الذي هو (أَنْ تَعبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[1] وهو أنك أيها المسكين تعطي ربك على المراقبة، وأن تقرض الله تعالى وأنت مراقب لله تعالى والله تعالى مطلع عليك وأنت تعطي وأنت تنفق؛ فهذه الدرجة العالية في الإحسان إن كنت تعبده كأنك تراه.

وهي الدرجة الأولى أن يعبد الله على المشاهدة يعني كأنك تراه أي تشاهده، فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتراقبه، فهذا المعنى كأنه يعطي الله تعالى مالاً على المراقبة، يعني كأنه يرى ربه حال إقراضه إياه أنت تقرض.

والمعنى الجميل هنا، في أنك تقرض الله تعالى هذا المال فأنت تخرج من مالك لتقرض ربك سبحانه وتعالى إياه فإذا بك إذا أقرضت أحدًا كان بينك وبينه هذه الرؤيا، وهذا الحساب والعد والمشاهدة والإشهاد وغير ذلك، ولله المثل الأعلى فإنك حينئذ تشاهد ربك أو تراقبه سبحانه وتعالى حال هذا العطاء.

فهذا يدخل تحت معنى عبادة الله تعالى عبادة من يراه والقرض يدخل تحت عبادة من يرى أن الله تعالى يراه وأن يستشعر المرء حالها امتثال أمر ربه سبحانه وتعالى بالإنفاق فكأنها معاملة بين مقرض ومستقبل وقد تقدم في قوله ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ** ﴾ [البقرة:٢٤٥].

والمضاعفة هنا هي إعطاء الضعف والضعف يعني المثل وجعل الله تعالى الإنفاق سببًا للمغفرة كما قال: (**وَالصَّدَقَة تُطفِئُ الخَطِيئَة كَمَا يُطفِئُ المَاءُ النَّار**)[2].

---

(١) رواه مسلم (٨) كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦) كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال : حديث حسن صحيح.

وقوله ﴿ شَكُورٌ ﴾ أي كثير الشكر فهي صيغة مبالغة من فعول، وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخير على فعل الصالحات، فالله تعالى يشكر لعبده فيزيده جل وعلا مما أعطى منه فيعطي المرء النزر القليل فيثيبه المولى سبحانه وتعالى الثواب العظيم، وليس الثواب العظيم فقط لأن صيغة فعول هنا يعني كثير الشكر **فكأنه سبحانه وتعالى يعطيه ما لا حصر له وما لا مقارنة به بين ما أعطى** وبين الجزاء الذي أخذه من الله تعالى، وزادك الله تعالى من الجزاء فيه زيادة لم تكن تتخيلها أيها المسكين، فكان ذلك دليلاً على أن الله هو الشكور سبحانه وتعالى.

وأُطلق الشكر على: **الجزاء بالخير على فعل الصالحات**؛ تشبيهًا لفعل المتصدر بالجزاء لشكر المنعم عليه على نعمه، ولا نعمة على الله تعالى فيما يفعله عباده من الصالحات، فعندما يقول إن ربك سبحانه وتعالى شكور، تُرى هذا الشكر مقابل النعمة التي أسديت إليه؟ ولكن لا نعمة لأحد على الله تعالى! بل لله سبحانه وتعالى الفضل والنعمة وهو الذي خلقهم ورزقهم وأعطاهم ومنحهم وأعطاهم الإيمان والعمل وأعطاهم كل ذلك سبحانه وتعالى بغير سابقة منة منه ولا بسابق عمل وبسابق فضل ولا شيء، وما كانوا يستحقون لولا فضل الله تعالى عليهم ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١]، فهي محض فضل الله تعالى لهم من ناحية ومن ناحية أخرى فإن نفع هذه الصالحات عائد لأنفسهم فكيف يشكرهم هم إن عملوا الصالحات؟

جزاء الصالحات لا يعود على الله وإنما يعود عليهم هم، فلا نفع لله تعالى في الصالحات التي يؤتوها حتى يشكرهم عليها ومع ذلك شكرهم سبحانه وتعالى تفضلاً منه وحثًا على صلاحهم.

فرتَّب لهم الثواب بالنعيم على تزكية النفس، أنت تزكي نفسك بالعمل الصالح، ومع ذلك رتَّب لك الثواب بالنعيم على هذه التزكية ولا نفع لله تعالى بتلك النعمة، وإنما يعود النفع عليك أنت لا على الله تعالى، لترى رحمة الله بك وعناية الله تعالى بعباده وتلطف لهم الذي سمى ذلك الثواب شكرًا وجعل نفسه شكورًا.

وأتبعها بصفة الحليم فقال ﴿ حَلِيمٌ ﴾ في هذه الآية بالذات وقد أومأ الله تعالى إلى هذا المقصد بإتباع صفة شكور بصفة حليم؛ تنبيهًا على أن ذلك من حلمه سبحانه وتعالى بعباده فإن من حلم الله تعالى بعباده **أن أثابهم على تزكيتهم لأنفسهم، وأثابهم على نفعهم لأنفسهم الذي لا يعود عليه سبحانه وتعالى** منه نفع وأثابهم عليه قال ذلك إنما هو من حلمه سبحانه وتعالى ومن سعة رأفته جل وعلا ورحمته سبحانه وتعالى كما ذكرنا في اسمه الحليم.

وحظك من هذه الآية أن تتصف بالأمرين معًا:

الأمر الأول وهو الإنفاق الذي ينبغي أن يسارع إليه المرء وأن يستكثر منه لأنه سيضاعف له هذا الخلف من الله تعالى أضعافًا كثير فيخرج بذلك شح النفس في العبادة وفي المعاملة وفي المال وأنت تجد نفسك كذلك شحيح النفس بالصلاة والعبادة ولا تتخيل أنك إن بذلت ذلك لله تعالى أن الله تعالى يزيدك من الصلاة ويزيدك من قراءة القرآن ويزيدك من الصيام ويزيدك من البر والإحسان، وإن بذلت مالاً وجدت الزيادة كذلك من الله تعالى في هذا المال.

وهذه من الأمور المهمة فلا ينبغي للمرء يستثقل أن يبذل نفسه في الصلاة ويستثقل أن يبذل وقته وصحته فيها ويستثقل أن يبذل لها ليله وجهده ويستثقل كذلك في ماله ويستثقل في صحته ويستثقل في أن يقضي حاجات المسلمين وأن يسير لهم، ويستثقل في أن يسعى بشدة

ساقيه معهم أو أن يرفع بشدة ذراعيه لهم أو أن يبذل لهم المعروف القليل الذي أمر به النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم.

الأمر الثاني هو كيف يتصف بهذه الصفة من صفات الله تعالى، بأن يكون شكورًا وقد علمنا هذا المعنى في الدروس الأولى كيف يكون شكورًا، وأن من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى[1]، وأن هذه الطباع التي تستثقل أن ترى لغيرها فضلا أو أن تشهد له حقا أو أن ترى له عملاً وسعيًا قد بذله لها فتشكره عليه، أما هذه نفوس المطبوعة على الخسة وعلى النذالة فلا ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بل نفوس المؤمنين منشرحة بأن تشكر، وأن تسدي المعروف لمن أداه، ولا تبخل بذلك ولا تستكثر على نفسها شيئًا في أن تشكر؛ لأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى.

❖❖❖

الآية التالية: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر:٣٠].

وقبلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

من يتفهم في آيات الله تعالى يرى كأن الله سبحانه وتعالى يقول: الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً هؤلاء يرجون هذه التجارة الرابحة وسوف يوفيهم الله تعالى أجورهم ويزيدهم من فضله لماذا ؟ لأنه شكور وغفور؟ ولماذا غفور؟

(١) رواه الترمذي (١٩٥٤) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

لأنهم سيقصرون فيغفر لهم تقصيرهم ويزيدهم من فضله سبحانه وتعالى فلما غفر ذنوبهم التي وقعوا فيها وزادهم من فضله على قلة عملهم دل ذلك على كونه غفورًا شكورًا.

وقد دلت الآية على طريق من طرق الشكر وهو تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم سبحانه وتعالى وهو التجارة الرابحة التي نود أن نذكر بها هذه الأيام وفي هذه الأيام بالذات لأن أيام العشر من ذي الحجة كما ذكر النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم:

(مَا مِن أَيَّام العَمَلَ الصَالِحِ فِيهَا أَحَبَّ إِلَى الله تَعَالَى مِن اَلعَشْر، قَالُوا: وَلَا الجِهَاد فِي سَبِيلِ الله قَالَ: وَلَا الجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله، إِلَّا رَجُل خَرَجَ بِنَفسِه وَمَالِه فَلَم يَرجِع مِن ذَلِكَ بِشَيء)[1].

ولكي نرى علاقة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩] بما قبلها فالآية التي قبلها **﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾** [فاطر: ٢٧، ٢٨]، فنقدم بهذه الآية لنفهم تراكيب هذه الآيات الكريمات لنصل منها إلى معنى الشكر الذي نريد ولنفهم منها طريق الشكر الذي يريد الشرع منّا، ولنرى أسباب الشكر التي كانت هي العمود الذي يسير وراءه المرء حتى يشكر الله تعالى.

وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الأظهر أنها تأتي بعد كلام يتنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل ومعنى هذا الكلام إن الآية كلها تقول: **﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾** فقال ﴿ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾ يعني كذلك كما أن في الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه.. **فكذلك في البشر مختلف ألوانه ومن هؤلاء البشر الذين تختلف ألوانهم لا يخشاه منهم إلا**

---

(١) رواه البخاري (٩٦٩) كتاب الجمعة، باب فضل العمل في أيام التشريق .

العلماء ، وإذا علم ذلك دل الالتزام على أن غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله جل وعلا فدل على أن البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم كذلك مختلفون.

وأوثر هذا الأسلوب ﴿ **كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟** ۗ﴾ بالتنويه بأهل العلم والإيمان والقصد المستفاد من هذا اسمه **"قصد إضافي"** يعني أن الله لا يخشاه إلا العلماء، فكأنما قصر خشية الله على العلماء أي لا يخشاه الجهال الذين لا يعلمون عن الله ولا يعرفون ربهم سبحانه وتعالى، وإن العلماء أنفسهم مختلفون كذلك في مقدار الخشية وذلك على قدر العلم بالله تعالى فليس كل العلماء الذين يخشون الله تعالى متفقين في هذه الخشية بل هم متفاوتون فيها على قدر تفاوتهم في علمهم بربهم سبحانه وتعالى.

وهذه مسألة مهمة؛ لأنها تبين طريق الزيادة التي ينبغي أن يسلكها المرء حتى يزداد علمه بالله فتزداد خشيته لله تعالى فيكون أقرب إلى الله وأحب إلى الله وأكثر تحصيلا لصفة الشكور التي ستأتي بعد ذلك، وهي الزيادة التي ذكرها الله تعالى.

وتقديم مفعول ﴿ **يَخْشَى** ﴾ في قوله تعالى: ﴿ **يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟** ۗ﴾ حيث لم يقل يخشى العلماء ربهم أو يخشى العلماء الله على ترتيب الجملة العادي في اللغة العربية؛ **لأن المقصور فيهم خشية الله هم العلماء** فوجب تأخيره على سنة تأخير.

فمن هم هؤلاء العلماء؟.. قال: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** ﴾ [فاطر:٢٩]، فالمراد بالعلماء، العلماء بالله وبالشريعة وعلى حسب مقدار العلم في ذلك تقوى وتزداد خشيتهم لله تعالى فأما العلماء بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه معرفةً على وجهها فليست علومهم بِمُقَرِّبَة لهم من خشية الله..

فليس أي علم يولد الخشية، لا، ليس المقصود إلا العلماء بالله تعالى وبشريعته بدليل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٢٩] فهؤلاء هم العلماء الذين وقعت في قلوبهم الخشية لله تعالى أما تلك العلوم التي لا تتعلق بمعرفة الله تعالى وثوابه وعقابه جل وعلا فلا تقوم بها خشية لله تعالى ومن تتأتى الخشية بها لله تعالى إذا لم تكن هذه المعرفة معرفة بالله تعالى ومعرفة بثوابه وعقابه مما يجعل القلب في خشية لله تعالى.

ذلك لأن العالم بالشريعة لا تلتبس عليه حقائق الأسماء الشرعية فهو يفهم الأشياء الشرعية التي ذكرها الله تعالى في كتابه يعني **يفهم الإيمان والإسلام والإحسان والخشية والتقوى والبر والطاعة والمعصية والكفر والذنب والشرك والسيئات ويفهم الجنة والنار والميزان والبعث والحشر ويفهم الصلاة والزكاة،** فهذه التي تسمى الأسماء الشرعية فالعالم يعرف هذه الأسماء الشرعية على حقيقتها سواء كانت في العبادة أو في العقيدة أو في اليوم الآخر أو في المعاملات أو في غير ذلك من الأخلاق والسلوك التي شرعها الله تعالى في كتابه فهؤلاء هم العلماء الذين يعلمون عن الله تعالى مراده جل وعلا، وعن النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم مقصوده ويسيرون عليه بهذه الخشية له سبحانه وتعالى؛ فتستقيم قلوبه وأحوالهم إلى الله جل وعلا.

وهؤلاء العلماء يعلمون عواقب الأعمال من خير وشر فهم يأتون ويدعون من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، وإن خالف أحد منهم ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال أو بعض الأوقات، لأنه ليس ثم أحد معصوم نداء الشهوة أو الهوى أو لتعجل دنيوي مثلا علم أنه متورط فيها لا تحمد عقباه، لا يلبث أن ينصرف عنه ويتوب ولا يسترسل معه بل يقلع ويتقلل من هذه الأمور ويتوب ويستغفر ويرعوي مرة أخرى إلى الله جل وعلا فهذه مرتبة العلماء.

ولكن ما هو الحال بالنسبة لهؤلاء الذين لم يصلوا إلى مرتبة العلماء فهل الله تعالى قصر الخشية على العلماء ولم يبق أحد يمكن أن يخشى الله تعالى، أو أن يستشعر خوفًا لله جل وعلا يكون سببًا لنجاته في الآخرة غيرهم؟ لا إنما رحمة الله أوسع من ذلك، **فغير العالم إن اقتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء وخشيته متولدة من خشية العلماء.**

قال الشيخ أبو محمد: والعلم دليل على الخيرات وقائد إليها وأقرب العلماء إلى الله أولاهم به وأكثر له خشية وفيما عنده سبحانه وتعالى رغبة.

وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ لماذا جاءت العزة مع المغفرة؟ فقوله ﴿ عَزِيزٌ ﴾ دلَّ على استغنائه تعالى عن إيمان المشركين، وقوله ﴿ غَفُورٌ ﴾ لفتح باب التوبة لكل أحد يريد أن يرجع إلى هذا الحال من الخشية، يعني إذا بين لهم أنه عزيز سبحانه وتعالى وأنه مستغن عنهم، فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد عبادتهم ولا خشيتهم ولا ينفعه شيء من ذلك فلعل ذلك يكون سببًا في قنوطهم وبعدهم وبالتالي يقصرون في الدين وفي الصلاة وفي العبادة، فأُلْحِقت قلوبهم بإتباع وصف عزيز بوصف غفور لتفتح باب الرحمة لهم، فهو يقبل التوبة منهم إن تابوا إلى ما دعاهم الله إليه.

وفي وصف الغفور بالذات هنا في هذه المسألة معنى آخر جميل وهو متعلق بالعلماء، فقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ يعني إن الله غفور للعلماء إذا وقع منهم شيء فلهم حظ عظيم من هذه المغفرة لذلك قد ذيلت الآية الكريمة بهذا الاسم تنبيهًا على هذا المعنى الذي يصل إلى هؤلاء العلماء إذا ما خالفوا أمر الشرع عن شهوة أو هوى أو نفع دنيوي أو غيره فإن الله تعالى ينعشهم بمغفرته جل وعلا ويتوب عليهم.

وبعد ذلك يقول تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

هذا كذلك استئناف فعندما يقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ طالما لم تعطف فهذا استئناف، يعني جملة جديدة مستأنفة ولكنها مستأنفة لتبين صفات العلماء في الشريعة أو شيئًا من صفاتهم التي تدل على أهمية هذه الصفات بالذات التي ذكرها الله تعالى لأن لهم صفات أخرى كثيرة أعم من هذه الصفات وأكثر منها ولكن هذه الصفات بالذات هي الدليل على الخوف والخشية لله تعالى وهي أخص هذه الصفات وأعلاها في الدرجة لأنها يعود نفعها إلى المرء ويعود نفعها إلى الغير فإن كانت في الصلاة يعود نفعها إلى المرء وفي الإنفاق يعود نفعه إلى الغير فيكون ذلك سببا لرفع درجته عند الله بسبب ما هو فيه من الحال الحسن وما تعدى من حال حسن بغيره فهذا هو الجزء الأول.

والجزء الثاني: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ فليس تلاوتهم لكتاب الله تعالى إلا لما يكون سببا لمعرفتهم لربهم في تجددهم لهذه التلاوة يقع في قلوبهم من العلوم النافعة التي تقربهم من الله تعالى والفتوحات الإلهية التي تكون سببا لرفع درجتهم وعلو خشيتهم ورجائهم في الله تعالى.

وأجمل حسن ذكرهم سبحانه وتعالى بذكر صفة غفور ولذلك ختمت هذه الآية أيضا بقوله: ﴿ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٣٠]، إذن قد ختمت الأولى بـ(غفور) وختمت الثانية بـ(غفور شكور).

لذلك فهناك ثلاثة مسائل نتعلمها من هذه الآيات: **الأولى: طريق الشكر**، وهو بتلاوة كتاب الله والصلاة والإنفاق مما رزقناهم، فهذا هو صفة العلماء وأنهم في الدرجة العالية من

الشكر **والمسألة الثانية: هي الدرجة العالية من ثناء الله تعالى عليهم** وشكره لهم والمسألة الثالثة: **أن الله تعالى غفر لهم في الآية الأولى وغفر لهم في الآية الثانية**، ما يمكن أن يقع منهم فقد ختمت الأولى بـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ وختمت الثانية بـ ﴿ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ لتأكيد هذا الثناء وبين الثناءين والمغفرة والشكر لهم بيَّن آثار هذا الثناء ومنافعه وطرقه التي وضحت في الآية.

والمراد من الذين يتلون كتاب الله، هم العلماء لأنهم اشتهروا بذلك وعرفوا به، والدليل على أن المراد به العلماء قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت:٤٩] يعني هذا القرآن آيات بينات والذين يتلون كتاب الله يتلونه لأنهم هم العلماء لأن هذه الآيات الكريمات من كلام الله تحملها صدور هؤلاء العلماء.

وهو أيضًا كناية عن إيمانهم فلما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ قلنا: هم المؤمنون به لماذا؟ قال: لأنه لا يتلو كتاب الله إلا المصدق به وإلا من آمن به والذي يتلوه محبة له وخشية لله وإقبالاً على هذا الكلام وأنسًا به وذكرًا للرب سبحانه وتعالى وتأدبًا لمأدبة القرآن الكريم واستشفاءً بشفائه وتعلمًا لعلمه إلى غير ذلك من معاني القرآن التي أشرنا إليها يومًا ما.

وأنهم يكتسبون العلم الشرعي من العقائد والأخلاق والتكاليف من التلاوة لكلام الله تعالى وهذا الفهم والتدبر لآيات الله جل وعلا.

وأَشْعَرَ الفعل المضارع ﴿ يَتْلُونَ ﴾ بتجدد التلاوة كلما نزل منه شيء تلقوه وتدارسوه وتعلموه وانتفعوا به ورأوا ذلك في سلوكهم وأخلاقهم، ولأن القرآن في كل مرة يتلوه كأنه لازال يتنزل ولأن في تلاوته كل مرة، يخرج بشيء جديد وبعلم جديد وبخشية جديدة وبفهم جديد وبفتح جديد من الله تعالى وهكذا لذلك عبر بالمضارع لتجدد ذلك.

وقوله ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ ﴾ فقد ورد الأمر بها قبل، لذلك فهم قائمون عليها مقيمون لها، وأما الإنفاق فقد آمن به وأمر به فهو ينفق لله تعالى على هذا الحال، وجيء بجانب إقامة الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي لأن فضل الصلاة والصدقة قد تقرر وعملوا به فلا تجدد فيه.

وأتبع ما هو علامة قبول الإيمان والعلم به بعلامة أخرى، وهي إقامة الصلاة كما تقدم في سورة البقرة، فإنها ، أي الصلاة أعظم الأعمال البدنية التي يقوم بها المرء، ثم أتبعت بعمل عظيم من الأعمال في المال، وهي الإنفاق فإذا أقام الصلاة كان ذلك بينه وبين ربه يرفع درجته، وإذا أنفق كان ذلك إحسانًا لغيره فتم له دينه وإيمانه بما كان منه من خير لنفسه وما تعدى من خير لغيره وهو في نفس الوقت يتلو كتاب الله ويتعلم أحكامه يتلو كتاب الله ليزداد خشية يتلو كتاب الله ليتدبر آياته يتلو كتاب الله ليفتح عليه يتلو كتاب الله ليستشفي من أمراضه وعلله يتلو كتاب الله لأن خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

وسياق الآيات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ يسمى في البلاغة التفات من الغيبة إلى الحاضر فلو كانت خالية من البلاغة لقال: (إن الذين يتلون كتاب الله وينفقون مما رزقهم الله). فـ(وأنفقوا مما رزقناهم) دليل على إدماج الامتنان في الآية يعني لما قال: ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ امتن عليهم بأن الرزق منه هو سبحانه وتعالى لا منهم فهذا يعني أنهم أنفقوا من رزق الله الذي رزقهم **فهو يمتن عليهم بالرزق ويثني عليهم لأنهم ينفقون من رزق الله تعالى** فهذا دليل امتنان الله تعالى عليهم فلما امتن عليهم بهذا الرزق الذي ينفقون منه كان مناسبًا أن يقول: ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ يعني أنفقوا إنفاق سرٍّ وأنفقوا إنفاق علانية.

ولكن ما الفائدة في أن يقول: ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾؟ المعنى أنهم **لا يريدون من الإنفاق إلا مرضاة الله تعالى،** فإن أنفقوا في السر أو العلانية لا يراءون أحدًا فهم ينفقون حيث لا يراهم أحد وهو السر وينفقون بمرءًا من الناس لا يراءونهم فلا يصدهم رؤية الناس عن الإنفاق.

وكما ذكرنا القول المأثور أو المشهور ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك فالذي ينفق لأجل الناس هذا شرك، والذي يترك العمل لأجل الناس فهذا رياء، فلا يصدهم ذلك ولا ذلك عن الإنفاق وقدّم السر على العلانية ؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص وأدعى إلى عدم مراءاة الناس حيث صدقة السر كما ذكرنا ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة:٢٧١] فقدم السر على العلانية في هذه الآية لأنه خير ولأنه أدعى إلى الإخلاص وترك الرياء وإن كان في العلانية كما ذكر الله تعالى ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ ﴾ لأنهم لا يصدهم رؤية الناس عن بذل وإنفاق لله تعالى لأنه لا يراءون أحدًا، ولا يهمهم أحدًا وفي السر؛ لأنه أخفى وأقرب إلى رؤية الله تعالى له فقط من أن يكون أحد يراه فيكون أدعى إلى إخلاصه وأحب إلى مولاه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ هذه بشارة لهم ليس رجاء فقط وإنما يبشرهم الله تعالى بأن رجاءهم سيقع في محله وأن هذه التجارة لهم تجارة رابحة لن تهلك هذه التجارة ولن تذهب سدى وإنما تجارته تاجرة رابحة إن شاء الله تعالى.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ يقول: (ليوفيهم) بشرناهم بذلك وقدرناه لهم لنوفيهم أجورهم ووقع الالتفات من التكلم في قوله مما رزقناهم فننتبه هنا إلى أنه عندما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ تأتي الإجابة ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً ﴾

فجاء السياق على نفس النمط الأول على غير السياق في قوله تعالى: ﴿ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فلننتبه إلى ذلك.

والتوفية هي جعل الشيء وافيًا تامًّا لا ينقص، فمعني ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي ليعطيهم أجورهم تامة غير منقوصة ولا غبن فيها وسجل عليهم الفضل سبحانه وتعالى؛ لأنه يزيدهم بعد ذلك يعطيهم هذه الأجور كاملة ثم يزيدهم من فضله سبحانه وتعالى، وهي الزيادة المضاعفة أضعافًا كثيرة كما في قوله: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فقد ذيَّل هذا الوعد بما يحققه، وهو أن الغفران والشكران من شأنه سبحانه وتعالى فإن من صفاته الغفور الشكور أي الكثير المغفرة والشديد الشكر، فالمغفرة تأتي على تقصير العباد المطيعين، فإن طاعة الله تعالى الطاعة الحقة هي التي بالقلب والعمل والخواطر، ولا يبلغ حق الوفاء بها إلا المعصوم صلَّى الله علَيه وسلَّم ولكن الله تعالى تجاوز لهذه الأمة فيما حدثت أنفسها وفيما همت به ولم تفعله، وفي اللمم وفي محو الذنوب الماضية بالتوبة كل ذلك تجاوز عنه سبحانه وتعالى؛ ليبين أنه هو الغفور، والشكر هنا كناية عن مضاعفة الحسنات على أعمالهم فهو شكر بالعمل، لأن الذي يجازي على عمل عمله المجزي بجزاء وافر يدل على جزاءه على أنه حمد للفاعل فعله، يعني الذي يجازي العامل على عمله وهو عمل قليل فجزاه بجزاء وافر دل على أنه قد حمد له هذا الفعل ودل على أنه قد شكره له سبحانه وتعالى مع أنه لا يستحق حينئذ إلا أن يخرج كفافا لا له ولا عليه.

والمرء قد يستحق العقاب بسيئاته فيكون حقه إذا غفر له أنه لا سيئات عليه فيخرج لا له ولا عليه فلو كان هو يستحق العقاب فغفرت سيئاته ومحيت وتجاوز الله تعالى عن ذنوبه فإنه

يخرج لا له ولا عليه ويكفي ذلك من الله تعالى أن يكون غفورًا فلا يعذبه سبحانه وتعالى ولكن زاد على ذلك أنه شكور فإن كان حقه أنه يخرج لا له ولا عليه لأننا كما ذكرنا أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لَن يَدخُلَ أَحَدٌ الجَنَّة بِعَمَلِه، قَالُوا: وَلَا أَنتَ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحمَةٍ مِنهُ وَفَضل)[1]، فلو غفرت للعبد سيئاته ما كان يستحق دخول الجنة، فإذن يكفيه أن يخرج ما له ولا عليه فما من أحد يستحق دخول الجنة بعمله الصالح فضلا عن سيئاته وذنوبه وهنا تأتي قضية الشكر فذلك العمل الصالح القليل الذي عمله المرء، يزيدهم الله من فضله فيكون ذلك سببًا لدخولهم الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ فضلا منه سبحانه وتعالى وشكرًا لهم على هذا اليسير من العمل.

وفي الآية ما يشمل معنًى آخر وهو ثواب قرّاء القرآن فأصحاب القرآن وأصحاب تلاوة القرآن المدمنون لقراءته وتلاوته فهموا أو لم يفهموا فإنه يصدق عنهم أنهم من الذين يتلون كتاب الله ويقيمون الصلاة ولو لم يصاحبهم التدبر في القرآن فإن للتلاوة حظها من الثواب وحظها من التنور بأنوار كلام الله تعالى فالتلاوة فقط لها حظها من الثواب ولها حظها من النور الذي يأخذه المرء من أنوار كلام الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

عرف المؤمنون حظهم من ذلك أن يسلكوا طريق الشكر الذي بينه الله تبارك وتعالى، وأن يسيروا في طريق الخشية الذي وضحه القرآن الكريم، كيف يكون على هذا الحال من سلوك طريق الشكر ومن معرفة أسباب الشكر ومن تعداد ألوان الشكر ونعم الشكر ليشكر الله تعالى عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى ليأخذ حظه من هذا الاسم المكرم فيكون له هذا الثناء من

(١) رواه مسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله.

شكر الله له أو من أن يكون هو كذلك كما قال فيهم المولى: ﴿ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

الآية الكريمة التالية وهي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٣-٣٥]، وهذه الآية: ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ من يطالع في التفاسير لا يجد ما يشفي الغليل فيها.

وقصة لوط عليه السلام، بينتها آيات أُخر، وبينت الحالة الصعبة التي كان فيها عليه السلام، حتى إنه من شدة الضعف قال: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧] ، لما جاءه قومه ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠]، قال له جبريل، وهو الذي كان قد نزل ساعتها في هؤلاء الأضياف: أنت تأوي إلى ركن شديد، بلى وهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (بَلَى لَقد كَانَ يَأوِي إِلَى رُكن شَدِيد)[1] إلى الله تعالى، ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١]، فانظر في هذه الآية كيف كان الشكر سببا في ذلك.

فقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾، يعني: الله تبارك وتعالى حصبهم بالحجارة وبالريح الشديدة التي تقلب الحجارة عليهم، وآل لوط هم قرابته وهم بناته فقط، ولوط داخل في هذا المعنى، وقد ذكر في آيات

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥١) كتاب الإيمان.

أخرى أن زوجة لوط لم ينجيها الله تعالى، الآية التي ذكرناها: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٦٠] أو ﴿ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [النمل: ٥٧] أو ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وهنا لم يذكر استثناء امرأته وجعلها في ضمن الهالكين اكتفاء بمواقع الذكر، وقد ذكرت في مواقع أخر ذكرها الله تعالى وتنبيهًا على أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله.

فهذه الآية الوحيدة التي لم يأت فيها ذكر امرأة لوط، وهي كما تعلمون كانت من الكفرة ، والله تعالى أصابها بما أصاب به قومها من الكفرة، في كل الآيات ذكرت سيرتها أنها أصيبت معهم إلا هذه الآية اكتفاء بتلك الآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يتعلم المرء هذه المعاني الجميلة في القرآن، فلو سأل سائل لماذا: لم امرأته في هذه الآية؟ لأنه من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود: ٤٦]، وفي قراءة ورش: (إنه عَمِلَ غيرَ صالح).

وقوله تعالى: ﴿ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ أي في وقت السحر، والإشارة في هذا الوقت بالذات لتدل على المعنى الجميل التالي في الآيات: أن الله تعالى نجّاهم قبل هلاك قومهم ليعتبروا بذلك وليروا هذا الحال الذي بين الله تعالى ، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر: ٣٨] فالعذاب المستقر أخذهم في الصباح، أما لوط وابنتاه فقد نجاهما الله تعالى في وقت السحر يعني قبل هلاك القوم، وذلك من عناية من الله جل وعلا بهؤلاء المكرمين من الأنبياء والصالحين.

وتشير الآية إلى أنه لم يؤمن بلوط عليه السلام أحد من العالمين من قومه هؤلاء المجرمين الكفرة، وهذا دليل على أن أهل الإيمان مأمورون بتبليغ رسالة الله تعالى، وما عليهم أن يؤمن أحد أو أن يكفر أحد، كما ذكر الله تبارك وتعالى.

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ : نعمة: منصوبة على الحال بمعنى: إنعاما منًّا، وقال: (من عندنا) تنويهًا بشأن هذه النعم العظيمة، لماذا؟ قال: ليعلم المرء بعد ذلك كيف **أن هذه النعم العظيمة إنما تنزل على من شكر**، وهي مقصودنا في هذه الآية الكريمة، أن قضية الشكر هذه هي أهم القضايا كما سنرى بعد ذلك في بقية الآيات، وهذه المعاني لغريبة التي سنراها في القرآن الكريم، الذي يقرؤه المرء ولا يلتفت إلى هذه المعاني المعظمة في هذه الآيات.

لذلك ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ تنويه بشأن هذه النعمة، وليرفع من قيمتها ويذكر من فضلها العظيم؛ لأنها كما قال: ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ نحن الإله الرب الكريم القادر المنعم المتفضل سبحانه وتعالى إلى آخر الأسماء والأوصاف الحسنى العليا له سبحانه وتعالى لتدل على عظم هذه النعمة ورفعة شأنها وقيمتها وخطرها.

لمن هذه النعمة؟ قال: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ يعني بمثل هذا الإنجاء وبهذا الجزاء العظيم الذي حصل للوط عليه السلام وابنتيه نجزي من شكر، وهو إيماء وإشارة إلى **أن إهلاك الكافرين كان بترك الشكر**، سواء الشكر بتوحيد الله تعالى على إرسال رسله إليهم ونعمه التي لا تعد ولا تحصى لهم سبحانه وتعالى، أو بشارة للمؤمنين بإهلاك غيرهم بأنهم كفروا ، فكان ترك الشكر هو كفر بهذه النعم، ويستحق المرء أن تؤخذ وأن تمحق منه هذه النعم التي امتن الله تبارك وتعالى عليه بها ووهبه إياها وكانت من عنده.

ليأخذ المؤمنون حظهم إذن وليعلموا أنهم متى شكروا الله تعالى ينتظرون هذه النعمة العظيمة من الله، وهي النجاة عند حلول المصائب وعند وقوع الخطب العظيم والهلاك لغيرهم.. عندما يقع الهلاك كما نرى الآن في هذه الأيام من هلاك المؤمنين والمسلمين وغيرهم مما يحل بهم، هذا يدل أن هلاكهم كان لترك الشكر، وهذا إنذار للمؤمنين كذلك أن يلحق بهم

ما لحق بغيرهم لتركهم الشكر، وهي بشارة لهم في نفس الوقت أن يعطيهم الله تعالى وأن يهبهم تلك النعمة إن هم شكروا.

والمسئولية إذن على المؤمنين في هذه البشارة وتلك النذارة، هذا النذير لهم من الله تعالى وهذا البشير لهم من الله تعالى، إن هم شكروا فإن الله تعالى يرفع عنهم وعن غيرهم ما حل بهم، وإن هم تركوا الشكر، كما هو حال المؤمنين اليوم، فإنه يوشك أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم قريبًا منه، كما ذكر الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ من شكر ننجيه نعمة من عندنا، ومن كفر فقد علمتم ما أنزل الله به وما سحق الله تعالى به أرضهم وديارهم وجعل عاليها سافلها، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود: ٨٢]، أو ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤].

۞۞۞

والآية التالية هي قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وتصور هذه الآية كيف كان المؤمنون ساعتها في هذه الشدة من الضعف والقلة وشدة العيش والمؤونة، وهذه الآية جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال هنا ليحذرهم: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، يعني: الاستجابة لله وللرسول فيما يفيد، وأن الأمر

إذا كان في ظاهره الموت لهم أو كان في ظاهره خرابهم، أو كان في ظاهره ما يصيبهم من شدة وألم، فإنه على الحقيقة ليس كذلك، بل في حقيقته الحياة ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

والمعنى المهم هنا، **لماذا ذَكَرَهُم بهذه الآية بالذات في سياق القرآن؟** إن من يقرأ هذه السورة يجد هذا القول في قوله سبحانه وتعالى في أول السورة لما قال جل وعلا: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ۝ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنفال: ٥،٦] يعني لما أمرهم بأن يخرجوا لملاقاة قريش إذا فريق منهم كأنهم يظنون أنهم خارجون يساقون إلى الموت وهم ينظرون، قال لهم لا، لما أمركم بذلك يجب أن تستجيبوا له، فإن في استجابتكم لله تعالى الحياة ليس الموت الذي تظنون، فليس في استجابتكم لأمره واتباعكم لتعاليمه وثباتكم على مواجهة الكفار أن في ذلك موتكم أو أنكم تساقون إلى الموت، بل العكس، **حتى يتعلم المؤمنون حظهم من ذلك، أن في ثباتهم على أمر الله تعالى وطاعتهم لأمره، الحياة لهم، ليس الموت كما يظنون**، فما بالك بما هو دونه، يعني: ليس في استجابتهم لأمر الله موت لهم، بل ولا ما دون الموت، يعني أصعب شيء يمكن أن يصيبهم أن يظنوا أن في استجابتهم لله تعالى الموت لهم بل على العكس في استجابتهم لله الحياة، وفي استجابتهم له سبحانه وتعالى تعالى النعيم والسرور في الأولى والآخرة؛ لأن الله تعالى لا يهلك جنده إذا ما استجابوا له، بل على العكس، ينجيهم كما قال: ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٥] ويقويهم ويؤيدهم ويرفع رايتهم.

ونعود للتفسير في قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦]،

فهذا عطف على الأمر بالاستجابة لله تعالى فيما يدعوهم إليه وعلى إعلامهم بأن الله تعالى لا تخفى عليه نياتهم وعلى التحذير من فتنة الخلاف على الرسول صلَّى الله علَيه وسلَّم، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم وأن عدوهم خاف بأسهم بعد ذلك، حتى يتقي أعداؤهم بأسهم، كيف لا يستجيبون لله تعالى فيما بعد ذلك وقد كثروا وعزُّوا وانتصروا !

وقوله ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ ﴾ : مشتق من الذُّكر بضم الذال، وهو التذكر لا ذكر اللسان، ففرق بين التذكر والذكر، فالذكر هو ذكر اللسان، فلم يطلب منهم بأن يقول: اذكروا، يعني تكلموا بهذا الأمر.. لا، وإنما (اذكروا) يعني تذكَّروا إذ أنتم قليل مستضعفون، وعبر بالجملة الاسمية لما كانوا عليه من استدامة الحال التي هم فيها على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيه، وكان السياق المتوقع: (واذكروا إذ كنتم قليل)، إنما جاءت الآية لتقول: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾ ومع أنكم مستمرون في الاستضعاف والقلة والضعف فإن الله تعالى آواكم وأيدكم بنصره، يعني على قلتكم وضعفكم وعلى استمرار ذلك فيكم !

وهي موعظة للمؤمنين الآن على ضعفهم وقلتهم واستمرار ذلك فيهم وبقائهم على ما هم فيه من القلة والذلة والضعف والمهانة، فإن الله تعالى ينصرهم بالشكر.

وقوله تعالى: ﴿ قَلِيلٌ ﴾ وهو مفرد عن ضمير الجماعة، وقوله : ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يراد بها الدنيا يعني في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أو أريد بالأرض ﴿ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني في مكة المكرمة.

والمعنى الذي تذكره الآية: تذكير للمؤمنين بأيام إقامتهم بمكة لمّا كانوا قليلا مستضعفين بين المشركين فإنهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد قد جفاهم قومهم وعادوهم فصاروا أي هؤلاء المؤمنون لا قوم لهم، لأن قومهم صاروا ضدهم وصاروا عليهم وصاروا ينكلون بهم ويعذبونهم فتنة في دينهم، وكانوا على دين لا يعرفه أحد من أهل العالم، فلا يطمعون في نصر أحد آخر من خارج مكة، فهم قليل مستضعفون في الأرض، فآواهم الله تعالى بأن صرف أهل مكة عن استئصالهم، هذه الأولى.

ثم بأن قيض الأنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا أنصارًا لهم بيثرب، المدينة المنورة، ثم إن الله أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة، فآواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة إلى يثرب، فآواهم بها أيضًا، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين، فنصرهم هنالك على المشركين في غزوة بدر، فالله جل وعلا الذي يسر لهم ذلك كله قبل أن يكون لهم فيه كسب أو تعمد، لم يكن بكسبهم ولا بأيديهم أن هيأ لهم الحبشة وهيأ لهم الناس من يثرب ليؤمنوا وهيأ لهم في يثرب مكانًا آمنًا وهيأ لهم في بدر هذا الانتصار كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وسنعود إليها إن شاء الله تعالى.

فإذا كان الله تعالى نصرهم وآواهم وأيدهم فعزوا وكثروا وارتفعوا أفلا يكون ناصرًا لهم بعد ذلك بعد أن ازدادوا وعزُّوا وسعوا للنصر بأسبابه؟ أفلا يستجيبون له إذا دعاهم لما يحييهم وحالهم أقرب إلى النصر منها يوم كانوا قليلا مستضعفين ؟

وقوله: ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾، التخطف هو شدة الخطف، والخطف الأخذ بسرعة، وهنا مستعار للغلبة السريعة، يعني مستعار للغلبة التي تسرع إلى المرء، ﴿ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يعني أن يغلبوكم وأن يأخذوكم بسهولة وبسرعة لا فيها مقاومة ولا فيها شيء، فكنتم في أضعف الحالات التي لو أراد الناس أن يغلبوكم بأقصى سرعة وأن يأخذوكم وأن يأسروكم

وأن يقتلوكم لكان ذلك في سرعة ويسر بدون مقاومة وبدون استبسال وبدون مكافحة! فيأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقة ولا طول محاربة إذا كنتم لقمة سائغة لهم، وكانوا أشد منكم قوة لولا أن الله صرفهم عنكم.

وقد كان المؤمنون خائفين في مكة، وكانوا خائفين في طرق هجرتهم، سواء إلى الحبشة أو إلى يثرب، وكانوا خائفين يوم بدر يظنون أنهم يساقون إلى الموت، حتى أذاقهم الله تعالى نعمة الأمن من بعد النصر في يوم بدر، ورزقهم من الطيبات، وهي الأموال التي غنموها من المشركين في يوم بدر.

وقوله: ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ ، والتأييد هو التقوية، يعني: قواهم سبحانه وتعالى إذ جعلهم ذا أيد يعني جعلهم ذوي قوة، كما قال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٧] يعني ذا قوة على عبادة الله والقيام بالحق.

وانظر إلى الكلام الجميل الذي يؤدي إلى معانٍ كثيرة في قوله: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: وهو إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة، فإن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق، يعني لما قال: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ آواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات، فالرزق من الطيبات دليل على أمرين: الأمر الأول هو الأمن، والأمر الثاني هو وفرة العدد؛ لأن وفرة العدد والأمن هي التي تجلب الوفير من الرزق بعد ذلك، فإذا أمن الناس وكثر عددهم استطاعوا أن يعمروا الأرض، وأن يخرجوا ما فيها من خير، فيزداد حينئذ الرزق، وتتسع عليهم طيبات الله تبارك وتعالى، فدلت الآية على أن الله أمّنهم، يعني بهذه الكلمة القليلة.

ومقصودنا بعد هذه الإشارة هو أن **مضمون هذه الآية صادق أيضًا على المسلمين في كل عصر من العصور** وهو أن يكونوا قليلا مستضعفين فيأويهم وينصرهم ويؤيدهم ويرزقهم من الطيبات سبحانه وتعالى، فقد صدق في عصر النبوة، وفي عصر الخلافة الراشدة، فجماعة المسلمين لم تزل في ازدياد عزة ومنعة، ولم تزل منصورة على الأمم العظيمة التي كانوا يخافونها من قبل أن يؤمنوا، فقد نصرهم الله على هوازن يوم حنين، ونصرهم على الروم يوم تبوك، ونصرهم على الفرس يوم القادسية، وعلى الروم في مصر وفي برقة وفي إفريقيا وفي بلاد الفرنجة في أوروبا، فلما زاغ المسلمون وتفرقوا أخذ أمرهم يقف، ثم ينقبض ابتداءً من ظهور الدعوة العباسية وهو أعظم تفرق وقع في دولة الإسلام.

وقد نبههم الله تعالى بقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، وهو مربط الفرس، فإنهم لما أعطوا الشكر حقه دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوا الشكر أخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور، وهذه هي القضية، كيف كان أمرهم حين آواهم الله تعالى وأيدهم ونصرهم.. كانوا في حال الشكر التي أمرهم بها الله تبارك وتعالى، فازدادت عليهم النعم من الله تعالى وتوسعت دولتهم وانتصروا على من كانوا يخافونهم، من الكفار والمشركين والروم والفرس وفتحت لهم بلاد إفريقيا وأوروبا وغيرها كما يذكر أهل السير.

وسبب ذلك، قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يعني لعل هذا الشكر أن يكون هو ما تدوم به هذه النعم وتلك الأفضال وهذه الرفعة وتلك المنعة والعزة التي أعطاهم الله تبارك وتعالى وتفضل عليهم بها مردها إلى الشكر، لذلك قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ رجاء أن تشكروا، فإن شكرتم زادت هذه النعم، وكما يقول: ماداموا أعطوا حق الشكر دام أمرهم في ازدياد عزة ومنعة، وإذا ما نسوا الشكر انقبض أمرهم وبدأ في الرجوع والانهيار كما هو الحال، وكأن الحال التي نحن فيها إنما مردها إلى نسيان الشكر وترك الشكر الذي وصل به حالنا إلى هذا التراجع.

ولم يزل النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم ينبه المسلمين بالموعظة ألا يحيدوا عن أسباب بقاء عزهم، ففي حديث حذيفة بن اليمان: (قُلتُ يَا رَسُول الله: إنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِّيَة وَشَر فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الخَير، فَهلْ بَعدَ هَذَا الخَير مِن شَر؟ قَالَ: نَعَم. قُلْتُ: هَل بَعدَ ذَلِكَ الشَّر مِنْ خَير؟ قَالَ: نَعَم وَفِيه دَخَن) [1] إلى آخر الحديث، ينبههم صلَّى الله علَيه وسلَّم ويتخولهم بالموعظة ويوقعهم على أسباب الداء الذي يمكن أن يصلوا إليها حتى لا يُقعوا أنفسهم والمسلمين فيه، والقصود بذلك الشكر كما قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وكان يمكن أن يكون ختام الآية غير هذا، (ورزقكم من الطيبات لعلكم تتقون)، ولكن الله جل وعلا بين أن الشكر أهم أسباب بقاء هذه العزة وذلك السلطان وذلك التأييد من الله تعالى وذلك الإيواء من الله تعالى، وإذا كان الله تعالى قد آواهم وأيدهم وذلك في عموم أهل الإيمان، فإن في خصوصهم كذلك ما يستوجب الشكر، فلو كان هذا الجمع المكرم يشتغلون بالشكر ليلة واحدة لرفع بلاء كثير عن أمة الإسلام، يعني لا يتخيل هؤلاء أن القيام بعمل من أعمال الشكر، كيف يكون ذلك سببا في أن يرفع الله تعالى البلاء وكيف ينزل الرحمة وكيف يكون سببًا من أسباب النجاة العظيمة، ولرأينا العجب من فضل الله تعالى، ولرأينا الفتح المبين من الله تعالى، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورا.

وحظ أهل الإيمان بعد أن علموا كيف أن الله تبارك وتعالى بين هذه الأحوال التي تصور حال المؤمنين من عهد النبوة الراشدة إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه، أن يعلموا أن ذلك ليس إلا على سبيل الموعظة لهم، أن يفهموا هذه القضايا التي تعود بهم إلى سابق عهدهم أمَّا ألا نفكر في هذه القضية من أصلها فإن ذلك الحال هو حال عدم المبالاة ، فلا يحس المرء بمسئوليته تجاه الله تعالى وتجاه نفسه فيصلحها ولا يحس كذلك بمسئوليته تجاه المؤمنين ليرفع عنهم البلاء

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة .

النازل، ولا يحس بمسئوليته تجاه البلاء الذي يوشك أن ينزل عليهم كما نزل على غيرهم، وقد وصلنا إلى هذه الحالة من البلادة ولا حل فيها إلا أن يعاود الناس هذه المعاني في الأسماء الحسنى لتكون سببًا لرجوعهم إلى توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته والتخلق بآثار أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، التخلق والاتصاف الذي يكون سببًا في أن يكونوا أهلا لنصر الله تعالى وإيوائه وتأييده مرة أخرى.

***

فإذا كانت الآية السابقة في عامة المؤمنين، فهذه في خاصتهم، وهي في قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة: ٧، ٨، ٩].

وهذه المشكلة التي نحن فيها وهي أنه لما آواهم وأيدهم بنصره تركوا الشكر فوصلنا إلى ما نحن فيه وقد تركنا الشكر ومستمرون على الحال نفسها ورزقهم هذه النعم العظيمة في أنفسهم ليشكروا.. وهذه المرة لم يقل (لعلكم تشكرون) إنما قال: (قليلا ما تشكرون) وهذه نشير إليها سريعا.

وجاء ذلك بعد التذكير بهذه النعم العظيمة :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة: ٧، ٨] وهذه من آيات الإعجاز في القرآن الكريم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾، سواه: التسوية هي التقويم، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، وسواه عائد إلى نسله فـ ﴿ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ ثم (سَوَّىٰهُ) أي هذا النسل، وإن كان الكلام على الإنسان، فهو أقرب مذكور كما قال الله تعالى، وإن كان الكلام على آدم، فقد وقع عليه ذلك أيضًا، فقد سواه الله تعالى ونفخ فيه من روحه وخلقه من طين كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢٩] أي: على آدم عليه السلام، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، فذكر التسوية ونفخ الروح في جانب النسل ينذر بأنه كذلك، فالكلام فيه إيجاز جميل، وإضافة الروح إلى الله، يعني: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ يكون إلى ضمير الجلالة للتنويه بذلك السر العجيب، فإن فيها سرًّا عجيبًا.. ذلك السر العجيب الذي لا يعلم تكوينه إلا الله.. وأضافه إليه لأن الروح ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، فالإضافة في روحي ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ تفيد إلى أنه من أشد المخلوقات اختصاصًا بالله تعالى، وإلا فالمخلوقات كلها لله جل وعلا.

والنفس تمثيل لسريان اللطيفة الروحانية في الكثيفة الجسدية مع سرعة الإبداع كما قال تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾، يعني تمثيل لسريان هذه الروح في الإنسان، أي اللطيفة الروحانية التي من الله تعالى والتي لا يعلمها إلا هو جل وعلا، ولذلك أضافها إليه اختصاصًا، لكونها من أشد المخلوقات اختصاصًا به، فالجسد كثيف والروح لطيفة، فلو خرجت من الجسد لا يحس بها أحد ولا يراها أحد ولا يمكن أن يمسكها أحد أو يقبض عليها أحد.

ولو تنبه القارئ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ قال: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ فيكون سياق الآية: ثم سواه ونفخ فيه من روحه

وجعل **له** السمع والبصر، أليس كذلك؟ ولكن الله تعالى عدل السياق هنا من **الغيبة إلى الخطاب**، فسواه وفعل له كذا وكذا يتكلم عن الغائب، ثم انتقل من صفات الغائب إلى صفات المخاطب نفسه، وجعل لكم، فهذا الانتقال يسمى التفات كما يقول أهل البلاغة، لأن المخاطب هنا من أفراد الناس، وجعل السمع والأبصار والأفئدة للناس كلهم غير خاص بالمخاطبين فلما انتهض الاستدلال على عظيم القدرة وإتقان المراد من المصنوعات المتحدثة عنها بطريق الغيبة الشامل المخاطبين ناسب أن يلتفت الخطاب إلى المخاطبين.

إذن فلم الالتفات في قوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾؟ الجواب: **ليميز لهم المنة العظيمة فيما يعلمون هم من أنفسهم**، فهذه المنة تشمل الجمع المخاطب وغير المخاطب في التسوية وتبين القدرة العظيمة لله تعالى، ولكن لا تشمل المنة، فلما انتقل إلى مخاطبتهم خاطبهم بما منّ عليهم به سبحانه وتعالى فكان أليق بالخطاب.. فلو قال: وسواه ونفخ فيه من روحه وجعل له السمع والأبصار لم يكن للمخاطبين في ذلك مِنَّة من الله تعالى عليهم تبين لهم حقيقة ما ينبغي أن يشكروه، إنما لما كان يتكلم عن القدرة تكلم بضمير الغائب، ثم لما أراد أن يميز المنن ويبينها لهم حتى يشكروا خاطبهم بما أعطاهم من النعم الظاهرة عليهم التي لا يمكن أن ينكروها والتي هي فيهم بحيث تكون سببًا لشكر المولى سبحانه وتعالى وتصريف هذه النعم في مرضاة الله جل وعلا.

والامتنان بقوى الحواس وقوى العقل أقوى من الامتنان بالخلق وتسويته، فلما يمتن عليهم بالعقل الذي أعطاهم وبالسمع وبالبصر الذي منحهم سبحانه وتعالى أقوى من أن يمتن عليهم بسوّاه ونفخ فيه من روحه، فالكل مستوٍ في سوّاه ونفخ فيه من روحه، وهذه قدرة الله وقوته، فليس فيها امتنان عليه، أو إذا كان ثمة امتنان فهو في الخلق فقط، أما إعطاؤه العقل وأما إعطاؤه السمع وأما إعطاؤه البصر فهذه التي تظهر فيها المنة على تمامها وكمالها، بحيث لو لم يكن فيه هذه القوى وتلك الحواس وذلك العقل **لعلم كم هي منة الله تعالى عليه ولعلم كم فقد**

من نعمة الله تعالى التي لو **أعطاه** إياها لكان خلقًا آخر يستوجب ذلك منه أن يشكر ربه سبحانه وتعالى وأن يصرف هذه **النعم** وأن يوجهها لشكر الخالق سبحانه وتعالى وألا يستعملها في معصيته جل وعلا.

وكان يمكن أن يقول بدلا من: **﴿ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾** .. يقول: وجعلكم سامعين مبصرين، ولكنه عدل عن ذلك إلى: جعل لكم السمع والأبصار؛ لتبيين المنة، والمعنى: **أعطاكم لفائدتكم**، أعطاكم نعمة منه، أعطى لكم أنتم هذه النعم وتلك المنن، وذلك أعرق في الفصاحة، واللام في (**لَكُمُ**) يعني أعطاكم من زيادة المنة؛ إذ جعل ذلك لفائدتهم ولأجلهم، فلما **قال**: **أعطى** لكم السمع والبصر، يعني لكم أنتم ولفائدتكم فإنه حينئذٍ أعطاهم كذلك فيها روعة **التصرف** في هذه الحواس، ما كانوا يستطيعون أن يتصرفوا فيها لولا منة الله تعالى عليهم بها أن يتصرفوا في هذا السمع وفي هذا البصر بما يكون سببًا لفائدتهم وسببًا لهدايتهم أو سببًا لتشريفهم وتعظيمهم أو سببًا لعصيانهم وكفرهم وظلمهم وبقية الأمور.. فلما كان ذلك إعطاء لهم تحت أيديهم يتصرفون فيه كيف يشاء زاد معنى المنة فيما لو قال: سامعين مبصرين.

ولو قال القائل: فلماذا **أفرد السمع**، وجمع الأبصار في قوله: **﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾**؟ وذلك لأن **السمع هذا** مصدر، والأبصار جمع بصر اسم؛ فالأبصار تجمع لأنها اسم، والسمع مصدر لا يجمع، وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد الناس، أما السمع فإن السمع لما كان مصدرًا لم يجمع.

وقد يسأل السائل: كل آيات القرآن قدم فيها السمع على البصر، لم نسمع الأبصار والأسماع والأفئدة؟

ففي تقديم السمع على البصر في موقعه من القرآن الكريم دليل على أنه أفضل فائدة من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، ولذلك ذهب جمهور العلماء وذكر الإمام ابن القيم أنه مذهب الإمام ابن تيمية أيضًا، أن السمع أفضل من البصر، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة، ولأن السمع هو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، وكان مبصرًا لا يفهم دعوة الأنبياء، ولم يكن يقام عليه الحجة بها ولم تكتمل بها هذه الكمالات الموصلة للعقل لمعرفة الرب والرسالة واليوم الآخر وغير ذلك من علوم التوحيد وعلوم الشرع ولذلك هو غير محاسب ويحاسب في الآخرة، يمتحن كما ذكر النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم في الخمسة الذين يمتحنون يوم القيامة أو في عرصات القيامة.

فقوله: (قَلِيلًا): وهي اسم فعل منتصب على الحال من ضمير لكم، جعل لكم السمع، يعني جعل لكم أنتم السمع، وأنتم قليلا ما تشكرون، وهي في تأويل المصدر، قليلا: يعني أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة وحالكم قلة الشكر، والمعني **أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة العظيمة وحالكم مع هذا كله قلة الشكر**، ثم يجوز أن يكون قليلا مستعملا في حقيقته وهي كون الشيء حاصلا ولكنه غير كثير، فهذا حقيقة قليلا ما تشكرون، فيمكن أن يكون مستعملا في حقيقته، يعني وقع الشكر ولكنه قليل، ويجوز أن يكون كناية عن العدم، يعني: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ولكن لا تشكرون.

وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦]، يعني: لا قليلا ولا كثيرًا، فلا يوجد قليلا وكثيرًا في الإيمان، و على هذين الوجهين، يعني سواء كان شكرهم قليلا أو لا شكر لهم، يحصل التوبيخ، لأن النعم المستحقة للشكر وافرة دائمة فالتقصير في شكرها وعدم الشكر سواء.

وهذا هو التوبيخ الذي ينبغي أن يصل إلينا بعد هذا المعنى ليسارع المؤمنون إلى رفع هذا العتب من الله تعالى عليهم، يقول لكم أعطيكم وكذا وكذا وكذا وأنتم لا تشكرون! كان حقكم أن تشكروا.. كان حقكم أن تداوموا الشكر.. كان حقكم ألاَّ تشكروا شكرًا قليلا بل أن تشكروا شكرًا كثيرًا، لأن نعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى كيف تقصرون في شكرها وكيف تفرطون في القيام بحقها، ومرد الشكر إليكم، وفائدته لكم!

إذن فعندما يقرأ المرء يتعلم شيئًا فشيئًا، ليعلم لماذا يعدل السياق في بعض المعاني عن هذه الألفاظ إلى غيرها **ليرى إعجاز القرآن وبلاغته وجماله والفوائد الجمة** التي تتعلق باختيار هذه الألفاظ لتدل في النهاية على أنها من الله تعالى، ولتدل كذلك على المعاني المقصودة التي يغيب عنها ذهن المرء، ويحاول حينئذ أن يتفكر فيها وأن يتدبر معناها وألا يمر عليه كلام الله تبارك وتعالى بغير هذا التدبر الذي يجعله يحب ربه ويحب كلامه ويدمن قراءة هذا الكلام والإقبال عليه.

❖❖❖

وانظر إلى هذه الآية لتتبين قيمة الشكر؛ والشكر هو الحكمة التي آتاها الله تبارك وتعالى عباده الذين يسرهم لهذا الأمر .. ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ** ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢].

ولقمان على رأي جمهور العلماء كان حكيمًا ولم يكن نبيًّا، وذكر أهل التاريخ والتفسير أنه كان في زمن داود عليه السلام، وذكروا أنه كان راعيًا للغنم، وقيل: كان نجارًا أو خياطًا أو غير ذلك.. وحكمة لقمان مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وكان معروفًا عند العرب كذلك بلقمان الحكيم، وكانوا يحفظون من حكمه التي سارت مسير الأمثال وضرب بها المثل.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ ﴾ ملخص المعنى فيه: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ وهو من بلاغة القرآن وبديع إيجازه، أن كان قوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ جامعًا لمبدأ الحكمة التي أوتيها لقمان ولأمره بالشكر على ذلك.

فإذا قلنا: ما الحكمة التي أوتيها لقمان؟ يكون الجواب: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ فهي اللفظة الجامعة التي جمع الله تعالى فيها معنى الحكمة .

وحكيمًا هذه درجة عالية من الدرجات التي قد علت مرتبة النبوة ليس في لقمان ولا غيره، ولكن مقصدنا في لفظ الحكمة.

نشير إلى معنى الحكمة ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ هذه الآية جاءت بعد ماذا؟ هذه الآية كما يقول المفسرون المحققون اعتراضية؛ فالآيات قبلها ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، والآيات قبل ذلك كلها جاءت في المواعظ والآداب والأخلاق والأحكام.. آيات الطلاق والمواعظ والأحكام والإنفاق والبذل والجهاد وجهاد النفس.. ثم جاءت هذه الآية اعتراضية، يعني السياق لا يساعد على أن تأتي هذه الآية بين هذه الآيات التي تتكلم عن الموعظة والأدب والأخلاق والأحكام، فكان السياق يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فيأتي بعدها مباشرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٠] ولا يشعر أحد بأن الآية سقطت! فهذا سياق الآيات.. فجاءت الآية اعتراضية، ولتذييل لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة مما يكسب العاملين بها رجاحة العقل واستقامة العمل.

والمقصود أنهم قد أصبحوا بهذه المواعظ والآداب التي وعظهم الله بها وتحلوا بأخلاقها وسلكوا في سلوكها صاروا حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء.. وكأنه يقول: من تخلق بهذه الأخلاق وارتفع بنفسه إلى هذه المصاف كان من هؤلاء الحكماء، وهذه الحكمة التي أعطاهم الله تعالى لا يعطيها إلا من يشاء، يعني: من يستحق أن يكون من هؤلاء **﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾**.

والحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، ونزلت الحكمة كما قيل على ألسنة العرب وعقول اليونان وأيدي الصينيين هذا هو الكلام التاريخي الخاص بالحكمة التي كتب فيها القدماء.

والحكمة فسرت كذلك بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يغلط في العلل والأسباب.

و علماء المفسرين من السلف في علم التفسير بالمأثور يقولون: **الحكمة هي سنة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم** كما ذكر في الآية الكريمة: **﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾** [الأحزاب: ٣٤] يعني السنة، وقيل الحكمة: هي القرآن الكريم، وقيل: الحكمة الفقه في دين الله تعالى، وقيل: الحكمة هي النبوة، كما ذكر الله تعالى: **﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾** [القصص: ١٤]، **﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾** [يوسف: ٢٢]، فالحكمة هنا بمعنى النبوة، وقيل: الحكمة أشمل من النبوة، وأعلى درجات الحكمة هي النبوة، ولأتباع الأنبياء من هذه الحكمة الخير الكثير الذي ذكر الله تعالى: **﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾** [البقرة: ٢٦٩] فمن يؤتى أعلى درجاتها كمن يؤتى درجة النبوة فهؤلاء لا أعلى منهم في الحكمة ومعناها، وأتباعهم لهم فيها حظ وهو الخير الكثير من معنى الحكمة الذي أوتيها أنبياؤهم.

وعليه فأعلى درجات الحكمة التي يؤتاها المؤمنون من النبي صلَّى الله علَيه وسلَّم، هو اتباعه والتزام سنته، بأن يكونوا حكماء فيحصلوا هذا الخير العظيم الذي جمعه الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ والمعنى أنه لا يكون حكيمًا أوتي خيرًا كثيرًا من الله تعالى باتباع النبي ووصل إلى هذه الدرجة المفعمة بالخير، والدرجة الراجحة في العقل والفهم، والدرجة الراجحة في العلم والفقه، والدرجة الراجحة في العمل والسير إلى الله تعالى، إلا هؤلاء الحكماء، وما هؤلاء الحكماء إلا الشاكرون لله تعالى.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ ، كان أول ما لقنه لقمان من الحكمة ما أمره الله تعالى أن يشكره به على ما هو محفوف به من نعم الله جل وعلا، ولها درجات أخرى بعد ذلك.

فمن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك من سلامة عقله واعتدال قواه حتى يكون قابلا لفهم الحقائق منقادًا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عنه أي عن الحق هوًى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر المولى له أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة، ممن يحضر الداعين إلى ذلك العاملين به وأن يسلم مكانه الذي هو فيه ممن هو خارج عن ذلك، فإذا انضم إلى ذلك -ما سبق- توجهه إلى الله تعالى بأن يزيد أسبابه تيسيرًا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير من الله.

وكان أول ما لقنه لقمان من الحكمة **هو الحكمة في نفسه**، يعني أمره الله تعالى بشكره على ما هو محفوف به من نعم الله تعالى.. منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل أن ينظر في حقائق الأشياء وقبل أن يتصدى لإرشاد غيره، ومن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة والشعور بموجده سبحانه وتعالى الذي أفاض الكمال عليه، وكل ذلك مقتض لشكره سبحانه وتعالى.

وأيضًا فإن شكر الله تعالى من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، ولا يكون الأمر من الحكمة إلا أن يكون العمل موافقًا للعلم، فيعلم حقائق الأشياء على ما هي عليه قصدًا للقيام بحق العمل بهذا العلم، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق بطريقة التشجيع والموعظة والتعليم، وذلك العمل كله من الشكر؛ إذ الشكر قد عرف بأنه صرف العبد لجميع ما أنعم الله به عليه من موارد ونعم فيما خلقه لأجله سبحانه وتعالى، فكان شكر الله تعالى هو أهم الأعمال المستقيمة، لذلك كان رأس الحكمة، لأن من الحكمة تقديم العلم الأنفع على العلم بما هو دونه، فالشكر هو مبدأ الكمالات علمًا، وهو غايتها عملا.. مبدأ الكمالات الشكر في العلم، ومبدأ الكمالات والغاية في هذه الكمالات هو الشكر عملا.. إذن مبدأ الكمالات هو العلم بالشكر، ونهايتها وغاية هذه الكمالات هو العمل بهذا الشكر.

وللتنبيه على هذا المعنى، وهو أن يشكر المرء ربه والقيام بحقه وأن العلم بها مبدؤها والعمل غايتها أعقب الله الشكر المأمور به ببيان أن فائدة للنفس يعني لنفس الشاكر لا للمشكور بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ لأن آثار شكر الله تعالى كمالات حاصلة للشاكر ولا تنفع المشكور شيئًا لغناه سبحانه عن شكر الشاكرين.. وجيء بصيغة الحصر، يعني حصر نفع الشكر في الثبوت للشاكر بقوله: ﴿ **فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ يعني ما يشكر إلا لفائدة نفسه لا لغيره، ولام التعليل هنا ﴿ **فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ مؤذنة بالفائدة أي بفائدة نفسه لا بفائدة غيره لا مشكورًا ولا غير مشكور.. وبدليل الضد ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ** ﴾.

وجيء بفعل يشكر بصيغة المضارع للإيماء إلى جدارة الشكر بالتجديد، يعني أن الشكر ينبغي أن يتكرر من المرء وأن يتجدد في كل حال لتجدد النعم ولكثرتها ولعدم إحصائها وعدها..

(ومن يشكر) يعني ومن يتجدد شكره ويتكرر ويستمر على هذا الشكر دليل على أنه كلما تجددت نعمة شكرها وأنه يشكر كلما عرف نعمة لم يكن قد عرفها من قبل وهكذا، وهو دائم الشكر لله يدل على هذه الحكمة التي تكلم فيها.

وحتى يأخذ المرء حظه من تلك الحكمة فليبت لله شاكرا الفضيل بن عياض كان يقول: متى بتَّ ليلة شاكرًا لله تعالى، متى بتَّ ليلة تعد نعم الله تعالى لتشكرها ؟ فلنجرب ليلة مع الله تعالى بالشكر لنجعلها قيامًا، لنجعلها ذكرًا، لنجعلها تعديدًا للنعم، لنجعلها توبة لله تعالى ومحاسبة، لنجعلها خروجًا من المظالم، ويرى المرء حينئذ كيف سيأخذ الله تعالى بيده ويربط على قلبه، ويرفع درجته، ويعطيه الخير الكثير.

❁❁❁

وآخر آية نُذَكِّر بها في قضية الشكر وهي قوله تعالى الذي أشار إليه في قصة بدر:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فبينت هذه الكلمات الجميلة **طريق الشكر لله تعالى وهو تقوى الله تعالى**، يعني الالتزام بتقوى الله جل وعلا والثبات على مواجهة الكفرة ، والتأدب بآداب الشرع الشريف.

و في قصة بدر بالذات حدث النصر للمسلمين وآواهم الرب جل وعلا ورزقهم من الطيبات وامتن عليهم بهذا النصر العظيم قال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ والمعنى: أن تجعلوا تقوى الله تعالى شكرًا لهذا النصر العظيم، وكذلك أن تكون تقوى الله تعالى شكرًا لثبات هذا النصر وشكرًا للمزيد من هذا النصر، فلما تركت

التقوى وتناساها الناس وصلوا إلى هذا الحال السيئ وهو أنهم تركوا شكر الله تعالى فكان سببًا لهزيمتهم وانتقاص دولتهم وسببًا لذلتهم ومهانتهم بعد أن كانوا أذلة أتقياء نصرهم، صاروا أذلة بغير تقوى هزمهم.

فكيف يثبت المرء على التقوى، وكيف يزداد منها حتى يكون ذلك سببًا لشكر هذه النعم فتثبت هذه النعم ولا تضيع ويكون كذلك سببًا للزيادة ؟

ونقول ذلك ليتفكر المؤمنون في حظهم من الآية الكريمة كيف يترقون في قضية الحكمة، كيف يترقون في قضية التقوى، كيف يقومون بتقوى الله تعالى حق تقاته، ليعود لهم في أنفسهم سبب نجاتهم، وليعود على المؤمنين سبب نصرهم وارتفاع كلمتهم، وسبب هزيمة عدوهم وإزالتهم له فآواكم ﴿ **وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٦].

فليضع المرء قضية التقوى التي هي سبب الشكر ليضعها نصب عينيه من هذه اللحظة ليكون بها شاكرًا، ليحقق بها ثبات النعم عليه، ليزداد بها من نعم الله، ليرفع بها البلاء، ليسارع بها.. فلو اجتمع أهل الإيمان على شيء من هذه التقوى وعلى أمر من أمور الشكر لتغيرت أحوال كثيرة فيهم وفي أمتهم وفي دينهم وفي أحيائهم وفي عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وأولادهم وفي كل شيء .

الفهرس